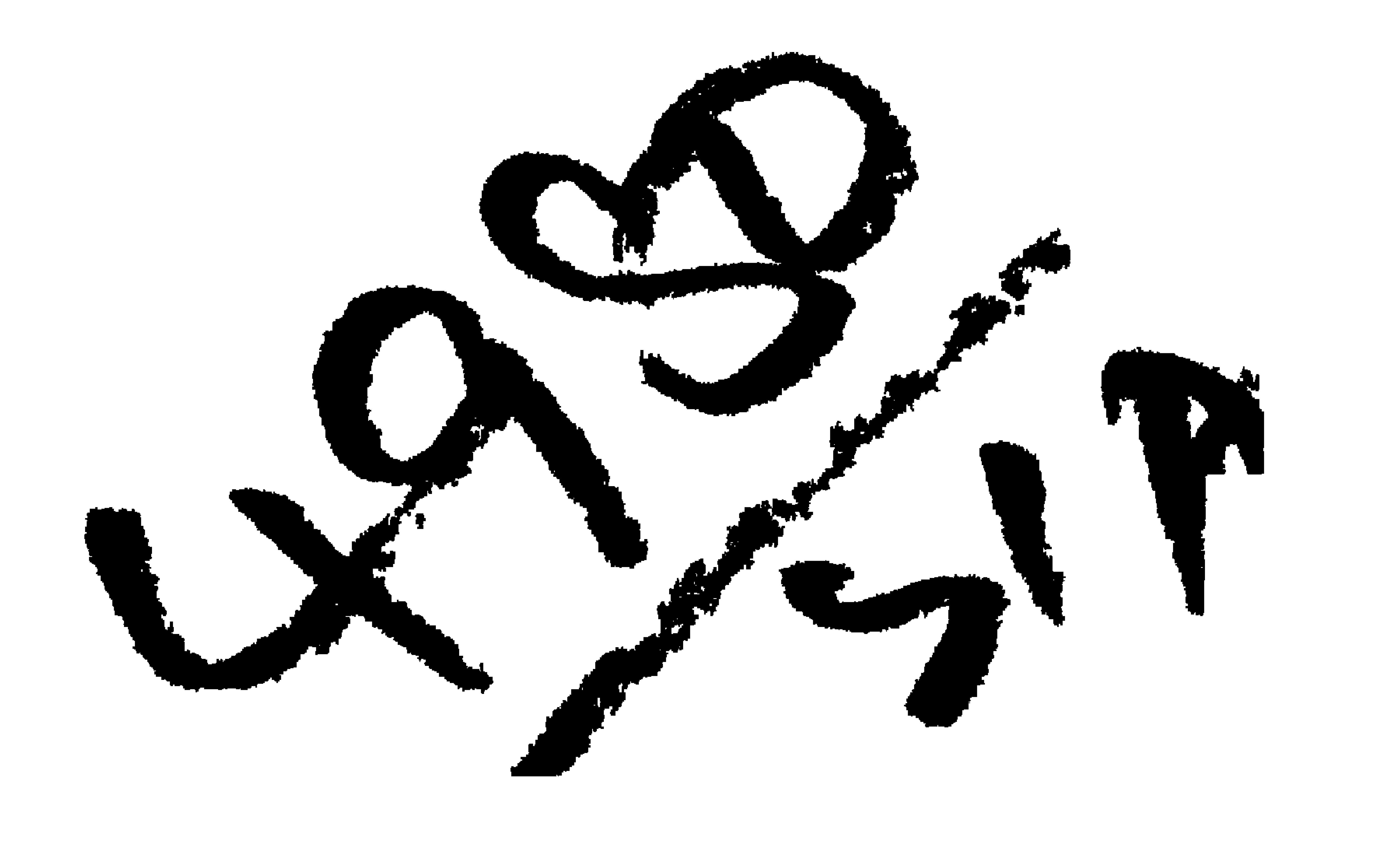




كتاب

محكمة الضمير

بحث أخلاقي

بديباجة في علم النفس مشفوعاً برواية اخلاقية

تأليف

احمد محمد عنايت

احد تلامذة مدرسة المحاسبة والتجارة العليا
بالقاهرة

[illegible]
[illegible] حضرة صاحب
العزة احمد بك فهمي العمروسي

مطبعة الهلال
بمصر سنة ١٩٢٤

اهداء الكتاب

الى صديقي الاعز طه افندي محمد صلاح

خريج التجارة العليا

هذا موجز أخلاقي أقدمه اليك وفاء لما بيننا من عظيم المودة واعترافاً على ما أوليتني به من جميل فعالك وحميد خصالك وحسن طويتك وواسع عرفانك وكبير اخلاصك ووافر محبتك — موجز عنيت في جمعه ووضعه فاصبح شاملاً لكتابين نفيسين خصص أولهما للبحث في قواعد علم الاخلاق ونظرياته المختلفة مستهلا في ذلك بديباجة مستوفاة في مبادىء علم النفس — وجعل الكتاب الثاني « لرواية محكمة الضمير » التمثيلية تطبيقاً عملياً على تلك النظريات الاخلاقية التي جاء بها الكتاب الاول

ولقد اتخذت من العبارة أسهلها وأسلسها ومن الايجاز أحسنه وأطيبه متخلياً عن حشو الكلام مخافة ملل القارىء وضجره . حيث ان آفة المطالعة إطناب يبعث على السآمة وتطويل يدعو الى الملامة

والله ميسر من شاء الى ما شاء بيده الخير واليه المآب

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

القاهرة في ٢٨ ٦ ٢٤

المخلص

احمد محمد عنايت

خريج مدرسة المحاسبة والتجارة العليا

بالقاهرة

الكتاب الاول

تمهيد في علم الاخلاق النظري (العلمي)
والمبني على مبادىء علم النفس

قبل البت في الكلام عن موضوع هذا الموجز المشفوع برواية « محكمة الضمير » وقبل الاسترسال في وضع فصولها لا بد لنا من مقدمة مسهبة في علم النفس تكون قاعدة لها وتمهيداً لما عساه ان يقع من غوامض هذه الرواية حتى لا تفوت القارىء صغيرة ولا كبيرة فيها الا أحصاها . لانه لا يمكن وضع قوانين يسير الانسان بمقتضاها وتعمل بها النفس ويقبلها العقل ما لم يعرف المطلع على هذه القوانين شيئاً عن حقيقة هذه النفس كما ان الطبيب لا يمكنه ان يقتصر على دراسة طرق العلاج ويهمل علم وظائف الاعضاء بل لا بد له قبل كل شيء من دراسته والوقوف على دقائق نقطه — كذلك يجب علينا أن نتكلم عن النفس وماهيتها ،

فنتساءل في هذه الحالة : ما هي النفس ؟

الجواب — طبيعة النفس البشرية مجهولة الى الآن كما جاء بالقرآن الشريف الآية (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا)

اذاً لا يمكن معرفتها الا بأثرها في الخارج

وتتكون آثارها من المظاهر الآتية :

ا — الحركة (الارادة) |
ب — الشعور | وهذه من مظاهر الحياة
ج — فكر

ا ــ الاعمال الحركية

فني الاعمال الحركية ثلاث قوى :

١ ــ طبيعية وبدون فكر وتسمى بالغرائز الثابتة

٢ ــ اعمال يأتيها الانسان بفكر وهذه تسمى بالارادة

٣ ــ اعمال يأتيها الانسان بطريق العادة

١ ــ تظهر أثر الاعمال الحركية التي تحصل بطبيعة الحال وبدون فكر وروية والمعروفة بالغرائز الثابتة في الانسان عند اشارة الاصبع أمام عيني الطفل فانك تجده يرمشها بفطرته خوفاً عليها من ان يصيبها ضر كذلك حينما يدلل تجده يخاف بطبيعته من السقوط على الارض كما ان هذه الغرائز تظهر من جهـة أخرى بين مميزات الحيـاة الحيوانية فترى اليعسوب (أم النحل) تلك الحشرة التي تصنع الخلايا فتضبط صنعها وتعمل على تنسيق الاشكال فيها بالمثلثات الدقيقة والمسدسات الهندسية الكاملة حتى اذا ما أتيت باحدى الآلات الهندسـية وطبقتها عليها لوجدتها والفيتها محكمة الصنع متقنة الترتيب والنظام على الوجه الاكمل وذلك لتوفر الغرائز الثابتة التي أشرنا اليها سالفاً

كذلك تتجلى تلك الغرائز الثابتة المذكورة في المرأة الواقفة بالقرب من حافة بئر ولاحظت ان ابنها أوشك على السقوط فيها فتسرع كالبرق الخاطف لالتقاطه وذلك لما يدل طبعاً على ان الحركة عاجلتها واضطرتها بحكم فطرتها لانقاذ فلذة احشائها ونجدته من سوء العقبى وشر المآل

٢ ــ أما في الاعمال الحركية التي يأتيها الانسان على طريق التفكير واستعمال الروية واصالة الرأي واعتقد انه اذا ما فكر بتأدية أي عمل من الاعمال ذات الفائدة القصوى فلا بد ان يتبع هذا التفكير بالتنفيذ والا كانت ارادته ضعيفة — ولاكتساب الارادة في جميع الاعمال ذات المنفعة الخاصـة والعامة يجب على الانسان ان يمرن ارادته في كل يوم بان ينفذ ما صمم عليـه ولا ينثني عن عزمه باقوال غيره حيث ان هناك مرضاً يعتري الارادة فيضعفها بل ويميتها وهذا المرض يعبر عنـه بالتردد . مثل ذلك طالبان متفقان على مطالعة علومهما معاً فانك تراهما يطالعان ساعة ثم يأخذ بهما الكسل مأخذاً كبيراً حيث تضعف أمامه ارادتهما فيصرفان الكثير من الوقت في سبيل الراحة من عناء المذاكرة ويلهيانهما عن

ميعادهما لذة اللعب مدة تجاوزا فيها حدود الراحة فتضيع ليلة الدرس والتمحيص في طلب تلك اللذة وهكذا يغالطان أنفسهما الى ان تأخذ ارادتهما في الضعف شيئاً فشيئاً

٣ — كذلك أعمال حركية يأتيها الانسان بطريق العادة حيث كانت في أول امرها تعمل بفكر فاصبحت عادة مطردة من كثرة التكرار . مثال ذلك الالعاب الرياضية التي كان يؤديها الانسان بفكر وأضحت بعد ذلك عادية بدون فكر وكذلك في ملء الساعة عند الظهر حيث تكرر ملؤها عند سماع الانسان مدفع الظهر الى ان صارت عادة عنده بانه يخرج الساعة من تلقاء نفسه دون ان يفكر فيها فيضبطها ثم يضعها في سيالته (جيبه) مرة أخرى وهو ملهى عن ذلك بعمله

ب — الشعور

يظهر الشعور في آثاره الثلاث :

١ — طبيعي وبدون فكر ويسمى بالميل الغريزي .
٢ — بفكر وهذا ما يسمى بالوجدان او الانفعال
٣ — الشعور بطريق العادة ويسمى بالشغف او الهيام

١ — أما كون الانسان يشعر بطبيعته من غير فكر فهي حالة من الحالات النفسية التي يعبر عنها بالميل الغريزي وذلك كأن يشعر بميله بفطرته للاجتماع بغيره ويحبه لوالديه وكأن يشعر بميله الى الاجتماع بمن يشابهه في أخلاقه وصفاته كما انه يوجد في فطرته أيضاً حبه للحقائق والطمع والمنافسة وفي ذلك ثلاث صفات في ميل الانسان تختلف باختلاف استعداد الانسان الفطري وهي :

امیال جسمانية = كحب الغذاء
اميال اجتماعية = كحب الاجتماع
اميال راقية = كحب الحق والوطن والجمال

ولنأت للقارىء بشيء من الاميال الراقية ما كتبه عمر بن الخطاب الى ابي موسى الاشعري وهو يلي القضاء كتاباً جاء فيه « ولا يمنعنك قضاء قضيته بالامس فراجعت فيه نفسك وهديت الى رشدك ان ترجع عنه فان الرجوع الى الحق خير من التمادي في الباطل »

٢ — الوجدان او الانفعالات هو الشعور المقرون بفكر وروية مثال ذلك من الوجدانات الشفقة على الضعيف والتأثر بحالاته كذلك الانفعالات وتوبيخ الضمير والخجل والامل حيث ان آخر شيء يموت في الانسان الامل ويخرج من الانفعالات أيضاً الفرح والالم والخوف

٣ — الشعور بطريق العادة ويسمى بالشغف وهو ميل مبالغ فيه او تجاوز حدوده حيث يقول بسكال « لا يمكن للانسان ان يهتم بشيئين في آن واحد » وذلك مقابل قول الآية « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » — ويسمى الشغف بلفظة Passion وهي مشتقة من Passif الامر السالب لان الانسان اذا شغف بشيء فانما ينقاد لهذا الشغف انقياداً تنمحي معه ارادة الشخص فيصبح عاجزاً عن مخالفة هذا الميل المتغلب عليه فكل ميل من الاميال السالفة الذكر يمكن ان ينقلب الى شغف فمثلا حب الغذاء يمكنه ان ينقلب الى شره واذا انقلب حب الشهوة البهيمية الى شغف أودى بالجسم وكذلك الشغف الى الراحة يصبح كسلا والميل الى حفظ الجسم لدرجة الشغف يصبح جبناً والميل الاجتماعي الشديد لدرجة الشغف يصبح حباً للذات واذا ما شغف الانسان بحب ذاته ينقلب الى كبر — وليس الكبر ممقوتاً في كل الاحوال حتى القليل منه ضروري للانسان لانه يحفظه من السقوط في مهاوي كثيرة فالكبر للمرأة عفتها . وكذلك اذا انقلب حب السلطة الى الشغف سمي بالاستبداد واذا شغف الانسان بالطمع انقلب الى حب المداهنة والنفاق

ومن الاميال العالية الراقية التفاني في حب الوطن والشغف بحب الحق حيث ينقلب الى الاخلاص فيه . كما انه يسبب حب الجمال وحب الموسيقى وحب التمثيل وجود نابغين فيها حيث يعبرون عن النابغة بالرجل المختل التوازن أي انه ازدادت قوة شعوره على مظاهر النفس الاخرى وهي الفكر والارادة . وسنتكلم الآن عن الفكر وآثاره في النفس

جـ — الفكر

وآثاره من ثلاث حالات الاتية :

١ — العقل الفطري — الحقائق الاولى

٢ — العقل المكتسب — التنبه
٣ — العقل بطريق العادة — الذاكرة — وتداعي المعاني

١ — يولد العقل الفطري مع الطفل وعنده بعض معلومات فطرية ويسمى بالعقل الطبيعي او بالحقائق الاولى مثل الكل اكبر من الجزء او الكل يساوي مجموع أجزائه وهذه الحقائق الاولى مركوزة في النفوس البشرية وحيث كانت هذه الحقائق واحدة فكل العلوم المبنية عليها واحدة في كل البلاد وانبنى على ذلك ان علماء الاقطار المتباعدة يتخاطبون ويتفاهمون في المسائل العلمية لاتفاقها في جميع نظرياتها بسهولة لا مزيد عليها وذلك لان العلم بامريكا هو نفس العلم الذي درس في انجلترا بالضبط . حالةان الناس قديماً كانوا يظنون ان الطفل ليس عنده معلومات فطرية (نظرية الفكر المجرد) مع ان الانسان يرث من أبيه المعلومات كما يرث منه الاموال والامراض

٢ — العقل المكتسب — بعد هـذا ينبغي للانسان ان يتمم العقل الفطري بالتربية والتعليم فتصل اليه عن طريق الحواس ولذا سميت بابواب النفس — ففي الخلق والعلم — قد أجمع العلماء على ان الاخلاق لا تتوافر الا في تربية الارادة والشعور فاذا وجد شخص قوي الارادة والشعور كان ذا خلق عظيم أما العلم فليس بضار على المرء ان يتناول منه القسط القليل او الكثير لدرجة معلومة ولحد معلوم — كما ان التبحر فيه وفي تربية الفكر فربما كان ضاراً

٣ — الفكر بطريق العادة — يفكر الانسان بطريق العادة كما هو الحال مع الشخص الذي اعتاد على حل المسائل الجبرية فتجده يحلها في بضع ثوان فلا يجهد نفسه كثيراً في حلها لان المخ يخزن المعلومات السابقه ويخرجها عند اللزوم وهذه ما تسمى بالذاكرة وكذلك قد يحدث للانسان أمر يفكر فيه متخذاً في ذلك أموراً شتى مضى عليها زمن كقرينة تساعد على تقوية الذاكرة وذلك لما بينها من الرابطة والعلاقة وهـذا ما يسمى بتداعي المعاني والخواطر — ونجد بالنظر الى مراتب المظاهر النفسانية ان كل مظهر منها ينتهي بطريق العادة — اذاً ينتهي الانسان في آخر أيام شيخوخته بان يعمل او يريد مضطراً بطريق العادة المجردة عن الفكر والشعور وان لا يفكر في هذه الحالة او يشعر الا بحالة مخصوصة تكون خاضعة للعادات التي ألفها منـذ الصغر وعلى ذلك ينبغي على كل

واحد منا ان يأتي من الافعال أحسنها ومن الشعور أرقاها ومن العقل أرجحه حتى اذا ما سقط في هوة العادة تكون المبادىء التي اختارها لنفسه في حياته الاولى مما يحسن السكوت عليها عند شيخوخته لانه اعتاد وألف الصفات الحميدة والخصال المألوفة الراقية.

اما في ارتباط مظاهر النفس بعضها ببعض الا وهي :

١ — الارادة (مظهر من أثر حركات أعضاء الجسم)

٢ — الشعور (مظهر ناشىء عن القلب وأمياله)

٣ — الفكر (مظهر تسبب عن أعمال العقل)

فنتساءل : هل مظاهر النفس تكون بمثابة واحدة عند الفرد الواحد ؟

الجواب على ذلك انه اذا توفرت هذه المظاهر في شخص بنسبة واحدة فهذا الشخص يكون الرجل الكامل ولا يتوفر ذلك الا في الانبياء

ولكن في الحالة الاعتيادية لا يمكن توفر الثلاثه بنسبة واحدة في الشخص لانه اذا نما مظهر منها وتقوى انبنى على ذلك ضعف واضمحلال في المظهرين الآخرين لانه كما يقول الافرنج اذا منحت الطبيعة الانسان شيئاً بيدها اليمنى فانها تسترد اشياء أخرى بيدها اليسرى كذلك يظهر لنا لاول وهلة ان هناك نسبة عكسية بين الارادة والشعور فاذا زادت الارادة ضعفت الشعور (مثل العسكري في ميدان القتال) حيث تشتد ارادته في الهجوم على عدوه بينما ان شعوره يتلاشى شيئاً فشيئاً وكذلك بين الشعور والفكر فكلما زاد الشعور وكان في نهايته العظمى كان الفكر في نهايته الصغرى (مثل ذلك عند ما يرد تلغراف بوفاة عزيز لبعض الافراد عنده فان شعوره يشتد وفكره يضعف لشدة تأثره على فقيده المحبوب) وكذلك لا يتفق الفكر الكبير مع الشعور الراقي لان العالم الكبير يقتصر على العلم وتجديد الفكر في كل وقت فيهمل مثلا القلب الذي هو مركز العواطف والشعور حتى يجف ويتحجر فيرى الفقير يموت جوعاً ولا يحسن اليه شيئاً مما زاد عن احتياجاته وكذلك نرى الرجل الواسع الفكر قليل الحركة والارادة ـ ولا تكون هذه النسبة بين مظاهر النفس التي تظهر لنا انها نسبة عكسية الا في النهايات ومع ذلك تثبت القاعدة العامة ان هذه المظاهر مرتبطة بعضها ببعض تمام الارتباط . برهانه :

أولا — تتولد الحركة أو الارادة من الشعور أو تترتب عليه وذلك ان مايتقنه الانسان من الاعمال ويحسنه هو ما يحبه كما انه لا يمكن للانسان ان يصل الى اجابة

مطالبه الا اذا أثر في قلوبهم تأثيراً حسناً بعباراته أو صوته او أعماله خصوصاً وان الجيد من الشعر والنظم يبعث في النفوس الحركة والارادة كما يؤثر الجمال والنظام والترتيب فيها ويدعوها للعمل

وعلى أثر ذلك كان الاقدمون يصورون القوة الغاشمة مسلسلة باللطف والجمال والطيبة حتى نرى اليوم ان دهاء أهل السياسة توصل الى كشف أسرار عدوهم بالتأثير على قواد الاعداء بطريق النساء ذات الجمال البارع والرشاقة مع الظرف فتجدهن مع ضعفهن الجسماني يتمكن بجمالهن الفاتن بالتأثير على عواطف رجال الشدة والشجاعة بطريق الغزل والمجون حتى يقفن على معرفة خططهم الحربية

ثانياً — والعكس بالعكس يولد العمل والحركة الشعور لاننا اذا نظرنا الى أي عمل نأتيه فاننا نشعر بعد الانتهاء منه بفرح أو ألم والامثلة على ذلك كثيرة ولذا عبر الفلاسفة السرور بانه زهرة النشاط

ولنأتي الآن على الرابطة بين العمل والفكر فنقول ان الدأب على العمل يقوي الفكر حيث يقول المثل الفرنسي « النبوغ في الفكر هو صبر طويل »

وسئل نيوتون كيف امكنك ان تكتشف قوانين الجذب العام فاجاب « بدوام التفكير فيها » وبالعكس يقود الفكر الارادة بدليل قول بيكون Bacon ما معناه « ان الانسان يعمل على قدر ما يعرف » فالاعمال التي نأتيها هي في الحقيقة تطبيقات على نظريات علمية بحتة

تهذيب علم الاخلاق على قواعد علم النفس سالفة الذكر

في تعريف علم الاخلاق وتهذيبه وموضوعه

الانسان ميال بفطرته الى العمل فيولد نشطاً شغوفاً بالحركة غير انه يشعر من نفسه أنه ليس مطلق الحرية في أن يأتي من الاعمال ما يشاء وما تمليه عليه شهواته وأمياله بل يشعر بانه مقيد في حركاته وان سلوكه في هذه الدنيا خاضع لنواميس خاصة وقواعد معينة — فموضوع علم الاخلاق هو تعيين هذه القواعد وايضاح تلك النواميس وليست هذه القواعد بالقواعد الاختيارية التي يجوز للانسان أن يخالفها وذلك لكونها الزامية اجبارية تحتم على الانسان أن يسير بمقتضاها ولذا عرفوا أيضاً علم الاخلاق بعلم الواجبات غير انه من جهة أخرى يعرف ان لا الزام الا في الخير كالزكاة في الاسلام فرض وركن من أركان الدين الحنيف وان الخير

هو الغرض الوحيد الذي يجب ان ترمي اليه الارادة كما ان الارادة اذا تعودت اداء الواجب عليها كانت ارادة طيبة فاضلة لذلك قالوا أيضاً في تعريف علم الاخلاق انه علم الفضيلة والخير

ويمكن تعريف علم الاخلاق أيضاً بانه علم النهاية والمثل الاعلى للنشاط الانساني. وحيث ان علم الاخلاق هو علم الواجبات كما تقدم فلا يصح ان نقتصر على معرفة عادات الانسان كما هي وسردها كما يصف علم التاريخ الطبيعي عادات واخلاق حيوان من الحيوانات أو فصيلة من الفصائل بل لابد من أن يبين لنا المبادىء والعادات التي يجب علينا ان نتحلى بها ونتبعها في جميع أمورنا وانه لا بد ان يظهر ويوضح لنا أيضاً العادات التي يجب علينا ان نتخلى عنها

في فائدة علم الاخلاق

انكر الكثير من الفلاسفة فائدة علم الاخلاق وفائدة تدريسه وفائدة تدوينه بحجة ان قواعده مركوزة في النفوس وان الانسان له ضمير يرشده الى الخير في جميع أموره وهي غريزة لا تخطىء فما اذاً الفائدة من علم الاخلاق ؟ وقال فريق آخر ان تعلم علم الاخلاق لا يولد الفضيلة عند من هو مجرد عنها وان الارادة الطيبة طبيعية في النفوس بدليل انه يوجد بعض افراد في منتهى الشرف والعفة وطهارة النفس والنزاهة بدون أن يتعلموا قاعدة واحدة أو لفظة من علم الاخلاق وبالعكس يوجد كثير من فلاسفة علم الاخلاق درسوه ودونوه ومع ذلك لا يسيرون بمقتضى قواعده وفي هذا المعنى يقول الفيلسوف الفرنسي بسكال ما معناه « يسخر علم الاخلاق الحقيقي من علم الاخلاق »

انا وان كنا لا ننكر ان في ذلك شيئاً من الواقع ونصيباً من الحقيقة ولكن هل يلزمنا بان نصرح بأعلى صوتنا ان علم الاخلاق مجرد عن كل فائدة ؟ الجواب لا يجوز أن نصرح بان علم الاخلاق عار عن الفائدة

ولا — لان البصيرة أو الوجدان أو الضمير ليس بالمرشد المضمون ولأنها الغريزة الثابتة التي تخطىء كما يزعم البعض بدليل انها متغيرة ومتناقضة تبعاً للازمنة والامكنة — مثال ذلك — الرق والسرقة وقتل الاباء في شيخوختها محلل في بعض الامكنة وفي بعض الامكنة الاخرى هي الفضاعة بعينها وقد حلل بعض

الفلاسفة قتل النفس (الانتحار) وقد حرمها الله حيث يعتبر المنتحر في نظر نظام الاخلاقيات جبان.

ثانياً — على ان الضمير كثيراً ما يعتريه التردد وخصوصاً في الظروف الصعبة الحرجة فان الانسان في مثل هذه الظروف يشعر بان عليه واجبات يؤديها غير انه لا يعرفها ولا يهتدي اليها وان هـذا النور الفطري المضيء أعني نور البصيرة كثيراً ما تؤثر فيه الشهوات والاميال والاغراض والعادات فتظلمه وتطفئه — فما أمهر الانسان في ان يخدع نفسه بنفسه وكثيراً ما ينظر الى أمر من الامور بالفكر المجرد الطبيعي فيحكم عليه لاول وهلة بأن هـذا الامر ضار ولكن لا يلبث ان تتداخل الاميال والاغراض والشهوات فتزينه للعقل فينخدع ويرى محموداً ما كان يراه مذموماً في أول الامر حيث يقول الامام علي كرم الله وجهه (لا تتبع النظرة النظرة فالاولى لك والثانية عليك) فاذا كان الامر كذلك فلا يكون علم الاخلاق عارياً عن الفائدة بل لا بد من تداخله لتنوير هذا الضمير واصلاح ما اعوج من الالهامات الفطرية

نعم ان علم الاخلاق وحده لا ينتج الفضيلة والشرف بالرغم مما يدعيه سقراط حيث يقول « ان معرفة الخير تكفي لان يقدم عليـه الانسان ويعمله » غير ان التجارب اليومية البسيطة تنكر عليه هذا القول فكم من مرة يرى الانسان الخير ويعرف طريقه ولكن ليس في استطاعته مطلقاً ولا في مقدوره ان يتجنب الشر ولكن مما لا شك فيه انه عند تساوي ارادة الخير في أشخاص يفضل منهم من يعمل الخير بعلم وفكر ويفضل منهم من يدري ما يعمل ويعرف لماذا يعمل على من يسلك سبل الخير وعلى بصره غشاوة من الجهل . ولنضرب لذلك مثلا يوضح ذلك

الرجل الذي يعمل الخير بفطرته وعلى بصيرته غشاوة من الجهل وكثيراً ما يريد الانسان الخير ويعمل غيره فانه أثناء التنفيذ يضر ضرراً بليغاً لجهله ما يفعل (كقصة الرجل والذبابة والدب) فعدو عاقل خير من صديق جاهل وعليه نستنتج من ذلك ان دعوى عدم فائدة تعلمه علم الاخلاق دعوة باطلة تدعونا الى انكارها لسوء ما ينشأ عنها من المساوىء والعيوب ولا يسعنا ازاء ذلك الا ان نصرح ونجاهر بأعلى صوتنا بان علم الاخلاق أهم العلوم وأنفعها للانسان وما عداه من العلوم قاصر على تثقيف العقل وتكوينه والانسان الحقيقي لا يكون انساناً الا بارادته

وقلبه وما تربية الارادة والشعور في هـذا المضمار الا الغرض الاسمي من علم
الاخلاق الحقيقي . لان المرء بأصغريه قلبه ولسانه

الباب الاول

ينقسم علم الاخلاق الى علم أخلاق نظري وعلم أخلاق عملي

فعلم الاخلاق النظري الغاية منه تعيين القواعد التي يجب السير على مقتضاها
حتى نصل الى غايته النهائية وهو الخير أما علم الاخلاق العملي هو تطبيق تلك
القواعد على ظروف الحياة المختلفة ولا يصح بحال من الاحوال فصل هذين العلمين
بعضها عن بعض لانهما معاً يكوّنان علم الاخلاق التـام ويتحتم علينا معرفة علم
الاخلاق العملي خصوصاً لان الرجال لا يحكم عليهم الا بأعمالهم ولـكن يجب علينا
في آن واحد ان نلم بشيء من علم الاخلاق النظري حتى نهتـدي بنوره في
تنفيذ أعمالنا

الباب الثاني

الضمير واحكامه والوجدانات التي تصحبه

La Conscience Morale

هل للانسان ضمير او بعبارة أخرى هل يوجد حقيقة قانون خيالي نخضع له
في سلوكنا وفي أعمالنا واذا كان موجوداً فما هو — الجواب على هـذا انه يوجد
فعلا قانون داخلي نسميه بالضمير وهو الذي يوجه أعمالنا حينما يريد وكيفما يرغب
فمثلا قبل تنفيذ عمل من الاعمال تجول في النفس أشياء كثيرة فيشعر الانسان بانه
في امكانه ان يسلك في الامر مسالك شتى غير انه يتردد في سلوك أي واحد منها
بل كثيراً ما يتردد في الاختيار فيشرع في المناقشة والبحث والتنقيب والموازنة في
الامر فيرى انه لا يمكنه ان يسلك طريق كذا لان في تنفيذه ما يضر به وان السير
فيه لا يجدي نفعاً أو انه ممنوع السلوك فيه ويرى كذلك بالعكس يمكنه ان يسلك
طريق كذا لان في تنفيذه كل الخير فيقدم على عمله مضطراً مأموراً لا بحكم قانون
خارجي بل تلبية لصوت داخلي باطني ينهانا عن عمل الاول ويأمرنا بعمل الثاني
مصدر هـذه النواهي وتلك الاوامر هو ما نسميه بالضمير مثال ذلك مثل

الرجل الفقير الذي يعثر في طريقه على كيس مملوء دراهم ويعرف له صاحباً ولذلك يبتدئ يفكر فيما اذا رده الى صاحبه ربما حاز الثناء الجميل ولكن ان أبى رده اليه وبخه ضميره على ان هذه الدراهم لم تكن ملكا له بالمرة فيستمر على هذا المنوال في مناقشة نفسه بنفسه الى ان يحكم له ضميره بان يعطي الكيس لصاحبه والا اتخذ في لومه وتقريعه اذا ما أبى رده فيصبح مشغول البال قلق الحال — وبالاختصار يحكم الضمير إما بالعقاب وإما بالمكافأة وعادة يعقب هذه الاحكام التنفيذ الذي ينتهي بعقاب وخز الضمير خصوصاً اذا لم يتعود الانسان فعل القبيح قبل هذه المرة حيث يستولي عليه الخجل ويشتد عليه ذلك الوخز لدرجة انهما يذهبان بأفراحه ومسراته مع ان ما أتاه من الخطيئة لم يطلع عليه أحد ما وربما جلبت له مسرات عديدة ولقد يصحب وخز الضمير في الغالب التوبة والغفران لان النفس عند ما ترى انها سقطت في أول مرة في هوة سحيقة تجتهد في ان ترتفع في المرة الثانية في نظر نفسه فيصمم تصميماً اكيداً ويعزم عزماً ماضياً على ان لا يعود لمثل هذا أبداً وبالعكس اذا رضي وامتثل لصوت ضميره وأذعن لاوامره فان الفرح الشديد يسري في قلبه وجسمه وتستولي الراحة التامة على فؤاده وهذا ما يسمى بالانشراح الادبي La Satisfaction Morale هذا مع ان الواجب الذي أبديناه كان في غاية الصعوبة والمشقة وضحينا في سبيله أهم مصالحنا الخصوصية وحرمنا أنفسنا في عزيز لدينا غير ان بالرغم من كل ذلك الحرمان والضمير ينسي الانسان متاعب هذه التضحية في سبيل الحصول على لذة تمر اداء الواجب لانه يعقب ما أديناه من واجب مسرة ليس بعدها مسرة وتحدث هذه الاحكام التي نصدرها على أنفسنا وتلك الوجدانات التي تصحب هذه الاحكام من جهة أخرى عند ما نرى الغير يأتي من الاعمال أسوأها وأخبثها وحكمنا عليه بانه رجل يستحق العقاب باحتقارنا اياه وربما انفعلنا عليه انفعالا شديداً . مثل ذلك قتل رجل أباه فان هذا الشخص يكون عندنا نموذج الخبث واللؤم وبالعكس اذا أحسن عمله مع الغير فاننا نشعر بان له احتراماً خاصاً في نفوسنا ونبجله ونعظمه كلما شاهدناه ونثني عليه الخير كله في كل مكان — فالشخص الذي تكون أعماله كلها حسنة يكون أمامنا نموذج الكمال والاخلاق الطيبة واذا ما حصل الانسان في هذه الدنيا على هذه المرتبة كان حقيقة سعيداً فيها وان مجموع هذه الاحكام وتلك الوجدانات التي تجول بخاطرنا عند ما نعمل او نرى غيرنا يعمل ما يسمى بالضمير

وعلى ما تقدم يشغل الضمير مراكز مختلفة بالنسبة لنا ولحالاتنا النفسانية حيث انه يميز الخير من الشر والطيب من الخبيث فقبل الشروع في عمل من الاعمال يكون مثله كمثل الشارع الذي يملي علينا القوانين التي يجب ان نعمل بمقتضاها ثم بعد العمل ينتقل من منصة الشارع الى منصة القضاء فيحكم لنا أو علينا ولذا عبر عنه علماء الاخلاق بمحكمة الضمير التي عنونا بها هذا الكتاب.

Le Tribunal de la Conscience

وهذا الضمير يمكن تشبيهه بحاسة من الحواس الخمس ويقال له بالحاسة الادبية

Sens Moral

في حرية الضمير

تثبت احكام الضمير والمشاعر والوجدانات التي تصحبها ايضاً ان الانسان حر في اعماله وانها صادرة منه وانه هو الفاعل لها لانه اذا لم يكن الانسان حرًا في اعماله فما معنى ذلك الصوت الرنان الذي يحتم علينا تنفيذ تلك الاعمال ونحن نعرف ان العاجز عن العمل لا يكلف بتأديته بل يقع التكليف على من له قدرة على العمل او يستدعي التكليف القدرة والحرية هذا من جهة ومن جهة اخرى اذا خالفنا ذلك الصوت الآخر الناهي فانه يعنفنا ويوبخنا على هذا العصيان فكيف نفسر هذا الخجل وذلك الخزي الذي نشعر به عند مخالفتنا هذا الصوت اذا لم تكن تبعة اغلاطنا وهفواتنا ملقاة على عاتقنا واننا نحن مسئولون عن افعالنا لاننا انما عملناها باختيارنا وانه لا يعقل ان يوبخ او يعنف على امر لا يصدر منا (غيري جنى وانا المعذب) . لم ينجح الانسان في اي وقت من الاوقات في التخلص من توبيخ الضمير أليس ذلك كافياً لاثبات الاختيار والارادة في الاعمال وربما قيل ان الانسان يوبخه ضميره على اشياء لا تصدر منه مثال ذلك كالمرض وقبح المنظر على اننا نقول ان نتيجة مثل هذه الاشياء لا تتجاوز الكآبة والحزن والاسف ولا تقارن بوخز الضمير الشديد اما اذا اذعنا لصوت الضمير وامتثلنا لاوامره فانه بداخلنا فرح شديد وسرور عام لاننا نشعر اننا أدينا الواجب علينا وان العمل الذي اتيناه ما اتيناه الا باختيارنا وارادتنا اما الفرح الذي نشعر به عندما نجد فينا مواهب طبيعية كالجمال والصحة والذكاء فانه فرح لا يكاد يشعر به الانسان ولا يقارن بالفرح الذي اوجدناه لانفسنا باعمالنا الارادية على ان النظام

الاجتماعي للحكومات يثبت ان الانسان يعتقد في الانسانية الحرية والاختيار في الاعمال مثال ذلك حلف اليمين امام القضاء. يكلف القاضي المتهم بان يقسم بشرفه بان يقول الحق ولا يقول الا الحق لان القاضي يعلم ان الانسان في استطاعته ان يكذب كما انه في استطاعته ان يصدق اذا أراد

وكذلك يضرب القانون على ايدي المجرمين باعدامهم او بسجنهم لا للتخلص منهم ولا لجعلهم عبرة للغير كما يظن بعض الناس بل لان الشارع يعتقد انهم انما ارتكبوه من الجنايات هو بمحض اختيارهم وانه كان في امكانهم تجنب هـذا الشرع اما اذا كان الانسان مسيراً في اعماله أعني مضطراً لا دخل له فيها وجب ان نقول بمذهب Spinoza الذي يقول « ما دمنا مسيرين فان الانسان الذي يوبخه ضميره ويتوب مجنون لا عقل له ومجنون كذلك من يبجل الرجل الشريف أو يصفق استحساناً لبطل من الابطال »

La Responsabilité المسئولية

يرمي الانسان في هـذه الدنيا الى غرض واحد هو عمل الخير دائماً ثم انه في امكانه عمل ما يوصله الى تلك الغاية فيجب عليه اذن أن يتحمل المسئولية امام ضميره اذا لم يصل اليها وعليه يقع كل توبيخ وكل تبكيت اذا كانت أعماله سيئة رديئة وبالعكس له ان يفتخر بنفسه ويهنئها اذا ما فعلت افعالا طيبة من شأنها انها توصله الى عمل الخير

عوامل المسئولية

عوامل المسئولية ثلاث العامل الاول وجود قانون يجب علينا ان نسير بمقتضاه لانه لو لم يكن الانسان مقيداً بقانون ما وانه في امكانه ان يطلق لنفسه العنان ويعطيها كل ما يتمنى ويشتهي لما كان مسئولا امام ضميره واذا لم يوجد قانون في هيئة من الهيئات الاجتماعية يجب اتباعه فكيف يكون الانسان مسئولا عن مخالفته ما يجب عليه اداؤه وعما له من حق حيث انبوجود الضمير توجد المسئولية كما انها ترفع اذا ما امحى الضمير وتلاشى

العامل الثاني ـ العلم بهذا القانون يلقي على الافراد مسئولية كبيرة اما الجهل

به فيدعو الى رفعها لانه كيف يمكن ان تلقى مسئولية ما على الذين يقتلون آباءهم وهم يجهلون تمام الجهل ان هذا العمل فظيعاً ؟ ينبني على جهل الانسان بالقانون براءته وبالعكس عندما ترى ان صاحباً لك ارتكب خيانة في حقك فانك تحتقره وتضطهده لعلمه انه ما أتى بهذا العمل الشنيع الا وهو عالم بشناعته فمن هذا يعلم انه كلما ارتقى فكر الانسان أمكنه ان يميز الخير من الشر وعلى هذا تأخذ المسئولية في الازدياد في كثير من الاحوال

العامل الثالث — هو الحرية والاختيار — فالمسئولية تقترن بالحرية بمعنى ان الاولى لا توجد بدون الثانية فماذا يكون الانسان اذا كان عمله مناف للقانون ؟ الجواب انه يكون مسئولا اذا كان عالماً بمواد القانون واحكامه ويكون غير مسئول اذا لم يكن عالماً به . اما اذا لم تكن أعماله صادرة منه وبمحض ارادته واختياره وصدرت عنه بالرغم منه وبقوة خارجة عنه فانه لا يكون مسئولا عن نتائجها فاذا عمل خيراً فالمكافأة على هـذا العمل ليست له بل للمسبب وللسبب الذي حمله عليـه واذا عمل شراً لا يلحقه العار المترتب على أفعاله بل يتخطى الى السبب الذي دفعه مضطراً اليه . اذن لاجل أن يكون مسئولا يلزم ان يكون حراً مختاراً في أعماله

حدود المسئولية

تنتهي المسئولية حيث تنتهي الحرية والاختيار مثال ذلك أن لا يوبخ ولا يعاقب المجنون اذا سب أو قتل الممرض له لانه ما عمل هـذا باختياره كما انه لا يمكن ان تلوم حجراً سقط عليك وسبب لك ضرراً وكما انه لا يلام غاز الاستصباح على انه اشتعل بملامسته النار وسبب ضرراً كبيراً باشتعاله لان هذه الاشياء محكومة بقوانين لا يمكنها التخلي عنها في المثل المتقدم حيث انعدم الاختيار بالمرة فسقطت المسئولية . وهناك أحوال اخرى يكون الاختيار فيها ضعيفاً فتضعف فيها المسئولية بنسبته مثال ذلك خرجت للصيد مع صاحب لك فقتلته خطأ منك فلا شك انك تأسف على هذا الحادث المحزن غير انك لست مديناً امام ضميرك بسبب هـذا القتل فلا يوبخك ضميرك على انك قتلت نفساً والمحاكم ايضاً لا تعاقب على القتل خطأ ويكون عقاب القاتل على ذلك بالحبس بضعة أشهر على عدم التبصر واخذ الحيطة أثناء الصيد وبالعكس اذا وجدت سوء النية ولو لم يحصل القتل فان الضمير

يعاقب كان القتل وقع تماماً فمثلا اذا أراد شخص قتل نفس وصوب نحوها البندقية وأطلقها فعلا ولكنه اخطأ في ذلك ولم يصبها فانه في نظر الضمير قاتل ولو لم يحصل القتل لان الانسان مسئول عن نواياه أمام الضمير وعن أعماله أمام المحاكم الاخرى فانه في الغالب يكون مسئولا عن أعماله فقط وعلى العموم تختلف المسئولية باختلاف الاشخاص وباختلاف التربية والتعلم بل وفي الشخص الواحد باختلاف الظروف ومع علمنا بان المسئولية حمل ثقيل على الانسان ولكنها حمل يشرفه ويرفع قدره فيجب علينا ألا نهرب منه او نقلله بل يجب ان نكبرها ونزيدها عاذا . بالتربية والتعلم والاختيار

ملاحظة ـ كما تقدم للنية ارتباط كبير بالمسئولية غير ان معرفة نية الغير أمر صعب جداً ان لم يكن مستحيلا فان الله عز وجل وحده هو الذي يعلم ما في السرائر وان الشخص وحده هو الذي يعرف ما يجول بضميره ولكنه يجهل تماماً ما يجول في نفس الغير وبناء على ذلك يلزمنا أن نكون أشداء على أنفسنا في الحكم ونتهاون فيه على الغير لاننا نجهل البواعث التي تحملهم على اداء اي عمل ما

الباب الثالث

في علم الاخلاق العملي

الواجبات

الواجبات على الانسان كثيرة ولكن يلزم ترتيبها قبل دراستها ولترتيبها يلزمنا أن نتخيل اولا الانسان في حالة عزله عن أمثاله ثم نتخيله بعد ذلك في الهيئات الاجتماعية ففي الحالة الاولى يكون على الانسان واجبات نحو نفسه وتسمى بالواجبات الفردية

أما اذا دخل الانسان في الهيئة الاجتماعية فانه تكون عليه واجبات نحو أمثاله وتسمى بالواجبات الاجتماعية

ويدخل تحت النوع الاول ثلاثة أقسام

تنقسم الواجبات نحو النفس الى ثلاثة أقسام كل قسم منها يقابل قوة من قوى النفس

١ — الشعور — يقابله — الزهد — القناعة التي هي جزء من العفة ومن العفة القناعة للجسم وضبط النفس
٢ — العقل والفكر — يقابله — الحزم — التبصر في عواقب الامور
٣ — الارادة — يقابلها — الشجاعة

١ — في القناعة والزهد المقابل للشعور

أولا نعرف ان ضد القناعة الافراط — الاسراف — الانهماك
ومعنى القناعة المتداول الاعتدال في الاكل والشرب والشهوات البهيمية فلا يمكننا أن نهمل ذلك لان الحياة لا تقوم بدونها ولكن لا بد من تنظيمها لان الانسان يأكل ليعيش لا انه يعيش ليأكل
إذ لا شيء في الدنيا اكره وأسوأ من الاندماج في اللذات والمسكرات لان هذا يحط من مرتبة الانسان ويقربه من البهيمية فتجفف القلوب وتجعلها قاسية وتغرق الارادة تحت امواج الشغف والغرام وتموت الحرية تحت رق الحواس اذا تمردت وكذلك يأخذ العقل في التناقص رويداً رويداً الى أن يتلاشى كلية أضف الى ذلك أيضاً ان الجسم لا يكسب من وراء ذلك الا الهلاك والاضمحلال والدمار أما الافراط في المشروبات الروحية فجرح اجتماعي خطير لا يندمل لانه هو السبب الوحيد في امتلاء المستشفيات والملاجيء بأصحاب الامراض العقلية كذلك من المصائب الكبرى كون مصائب الكؤول لا تتعدى أصحابها فقط بل تتسرب الى النسل فما أتعس هذا الميراث وما أنحسه

المعنى الثاني وهو المعنى الراقي للقناعة هو ضبط النفس إذ لا بد من بذل مجهود عظيم في سبيل تنظيم الاميال النفسانية فيجوز ان الانسان عنده احساس متطرف غير انه باستعمال عقله وتحكيمه فيه وسماع ندائه يمكنه أن يحفظ التوازن ويكون دائماً قابضاً على زمام نفسه ومن جهة أخرى اذا ما اعتراه الطيش وفقد رشده فانه لا يسمع نداء العقل بل يعطي زمام أموره الى الشهوة والشغف الشديد كما انه اذا تولد عند الانسان نمو زائد في الشغف فان القناعة تضمحل شيئاً فشيئاً مثال ذلك حب المال الى حد عطش المحموم الامر الذي لا يتفق مع القناعة مطلقاً لانه يصغر النفوس ويجفف القلوب الى حد يقال له بالافراط — مثال ذلك عدم تمالك الشخص الذي فوجئ بكسب كبير فتراه يتهاون لدرجة بعثرة المال ورميه من

النوافذ (وهو الاسراف) في حالة ان جزءاً منه صغيراً يكفي لاسعاد عائلات بائسة فقيرة — مثال آخر حب الراحة والانغماس فيها ليس من القناعة بشيء لان هذا يجر علينا الكثير من الرذائل والعيوب وهذا ما يسمى بالانهماك وكذلك انه ليس من القناعة بشيء أن نسلم أنفسنا الى نزعات الغضب الشديد لان هذه النزعات هي نزعات جنون حقيقي — وأيضاً انه ليس من القناعة كثرة الانهماك لحالة يكون من ورائها اختلال توازن النفس أو الجسم

واجبنا نحو تربية الشعور وتقويته

يرى مما تقدم انه لا بد من تنظيم شعورنا وللوصول الى ذلك يلزمنا أن نطبق كلمة الفيلسوف ارستطليس في هذا المعنى Il faut philosopher avec les passions (لا بد أن نتفلسف مع أميالنا وشغفنا) ومعنى ذلك انه لا بد من تحكيم العقل في شهواتنا وأميالنا واخضاعها له بحيث تكون دائماً تحت مراقبة دقيقة إذ الفضيلة تأمرنا أن ننظم شعورنا لا أن نقتلها فينا Regler ne pas étouffer

حرم بعض الفلاسفة كل حركة تصدر من القلب وحبذوا قتل كل عاطفة وميل تخرج منه الا أن ذلك ليس ممكناً عند الانسان ان يتجرد عن الانسانية وثانياً ان ذلك أمر لا نرغبه لأنفسنا لانه يجر الى الجمود المطلق واذا خمد الانسان بمعنى اذا تجرد عن كل احساس فانه في الوقت عينه لا يكون انساناً

هناك اعمال شريفة وعواطف طاهرة يجب تقويتها وتربيتها مثل اعلاء كلمة الحق والشغف بعمل الخير كما ان هناك غضباً شريفاً وانفعالات نفسانية كريمة مثل ذلك عندما يحتد الانسان ويغضب في سبيل أزهاق الباطل وسحقه ـ كذلك يجب ان لا نقتل في قلوبنا الحب الطاهر والأميال الشريفة نحو الاخوان كمواساتهم ومساعدتهم عند الحاجة وتخفيف مصائبهم فاذا كان هذا من الامور الممدوحة فمن باب اولى تربية العواطف التي تربطنا بالاشياء المقدسة مثل العائلة والوطن وكل هذه المسائل من شأنها ان تزيد في ارادتنا قوة وحرارة حتى لقد يجد الانسان لذة في تضحية نفسه في الدفاع عنها ولا بد وان نعود اوتار قلوبنا على ان تهتز لكل عمل عظيم ولكل فكرة راقية عالية وليكن قلبنا دائماً مملوء بالشعور والعواطف الشريفة التي يجوزها العقل

٢ ـ الواجب الثاني نحو العقل او الفكر هو الحكمة

لنتكلم على الحكمة قبل التكلم على الشجاعة لان الانسان يلزمه قبل ان يأتي عملا من الاعمال ان يفكر فيه طويلا ويناقشه في جميع اموره والا كانت النتيجة سيئة (الرأي قبل شجاعة الشجعان)

وكان الاقدمون يطلقون كلمة حكيم على الرجل العاقل المفكر الذي احاط بأسباب الاشياء وجرب الناس والهيئات الاجتماعية واستنبط من كل ذلك قواعد عامة ثابتة فاذا توفرت هذه الشروط في شخص ما كان الناس يستشيرونه في احوالهم وشئونهم . فالانسان في هذه الدنيا لا يمكنه حقيقة ان يسلك سواء السبيل في ظروفها المتعددة العويصة الا اذا كان ذكي الفؤاد متنوراً حساساً حكيما اذ كيف يعقل ان الانسان يدير حركة ما اذا كان يجهل الاشياء ويجهل نفسه ويجهل كذلك الروابط التي يجب ان تربطه بامثاله وكيف يصل الى نتيجة اذا لم يقدر كل شيء حق قدره واذا لم يميز الخير من الشر واذا لم يعرف الطرق التي توصل الى الخير وكذلك التي بها يتجنب الوقوع في الشر (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتى الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً)

العلاقة بين الحكمة والفضيلة

كان سقراط وافلاطون يقولان بان الحكمة والعقل او العلم توصل حتما الى الفضيلة او بعبارة اخرى ان الفضيلة هي علم ـ هذا الكلام فيه مبالغة اذ كيف نفسر أن هناك اناساً على جانب عظيم من الاخلاق الفاضلة والمبادىء الشريفة مع ان ذكاءهم في غاية من البساطة ومعلوماتهم ضيقة هذا من جهة ومن جهة اخرى كيف نفسر ان هناك اناساً على مقدار عظيم من العلم وجانب كبير من الحكمة ومع ذلك هم في سلوكهم الشخصي لا يعبأون بالاخلاق ولا هم على شيء منها بالمرة . سنرى ما يقوله بسكال في ذلك

وقد قال بسكال في هذا المعنى (ان الاخلاق الحقيقية تهزأ بعلم الاخلاق) La vraie morale se moque de la morale الامر الذي يحملنا ان نعترف ان في ذلك جانباً عظيما من الصحة كما اننا مع ذلك لا بد وان نعترف ان استنارة الفكر بالمعلومات لمن اكبر العوامل المساعدة على الحياة الاخلاقيه وذلك لاننا اذا استنار عقلنا يسهل علينا ان نميز الخير من الشر واننا اذا عزمنا على عمل من

الاعمال عملناه مع معرفة الاسباب وبعد مناقشتها مناقشة صحيحة

نحن لا تنكر ان العلم وحده لا يمنح الفضيلة ولا يولدها ولكننا نقول اذا تساوى استعداد عمل الخير في شخصين بفطرته فانا نفضل منهما من كان عالماً لانه اذا فعل فانما يفعل عن فكر وروية اعني ان اعماله تكون مبنية على اساس متين أما الجاهل فانه اذا عمل فربما عمل الشر وهو يريد الخير واذا عمل الخير فلا يكون عمله هذا مبنياً على دعائم ثابتة كما يعتقد الكثير من الناس ان التعليم وحده يوصل الى الشر وان العلم في الشخص الفاسد يكون آلة خطرة لانه يستعملها في الفساد هذا ايضاً حقيقي ولكن كوننا نريد ان نحرم العلم لان هناك بعض علماء لا خلاق لهم وان نحرم تعليم الطب لانه وجد اطباء يدسون السم لمرضاهم فاذا أردنا ذلك أردنا ان نحرم كذلك استعمال البخار كما قال الفيلسوف تاندال حيث ان هناك قزانات تنفجر لتدفق البخار فيها فتهلك الكثير من الافراد ومع ذلك كيف تنكر تأثير العلم في الاخلاق اذا كانت الاحصائيات تثبت ان الفساد والرذائل هي اكثر انتشاراً في الاوساط التي يعم فيها الجهل – وكان سقراط يقول انه لكي تصح ارادتنا لا بد من تنوير اذهاننا وخصوصاً في الامة الحرة لا بد وان يكون فيها طائفة من افرادها مستنيرة الفكر حكيمة رشيدة تدعو الى الخير وهذا شرط أساسي لتقدمها ونجاحها

تأثير العلوم في النفس وتهذيبها

وخصوصاً علوم اللغة

ان دراسة العلوم تؤثر في تقويم الاخلاق احسن تقويم لانها تطلعنا على عظم الكون وجماله فترينا هذا النظام العجيب والقوانين المحكمة الترتيب ما يبعث في نفوسنا حب النظام والاتقان والسير بمقتضاه في سلوكنا واعمالنا ونخص من هذه العلوم علوم اللغة وآدابها التي يحق لكل امة ان تفتخر برقيها فيها (كتأثير الشعر عند العرب ومنزلته عندهم) وفي كل وقت يرفع الشعر منزلة الامم وقد ذكر احد الكتاب الفرنسيين عند انتصار الالمان في حرب السبعين « يحق لكم ايها الالمان ان تفتخروا بما اوتيتم من النصر المبين كما يليق لكم ان تفتخروا بكل ما امتلكتموه من الذهب والارض غير انه ينقصكم شيء واحد تافه جداً ألا وهو شاعر يتغنى بمجدكم الاثيل كشاعرنا الذي يبكينا على مصابنا الاليم »

هذه العلوم لها تأثير عظيم على النفوس حيث تقوي الشعور والارادة ولا بد ان نفهم ان هذه القوى الثلاث هي في الحقيقة تحالف ثلاثي وان كل ما من شأنه ان ينمي واحدة منها فان صداه ينعكس على القوتين الثانيتين

العلم بالحقائق خير في ذاته

الحقائق غذاء العقل كما أن الاطعمة غذاء الجسم والانسان في حاجة اليهما وبالفكر يتميز الانسان عن سائر الموجودات الاخرى ولذا كان يقول بسكال ان الانسان امام هذا القوم بوصة الا أنها بوصة مفكرة فاذا حرّم الانسان العقل من غذائه فانه يكون قد جلب اليه شراً كبيراً — وجنى عليه جناية القتل وبعبارة اخرى (انتحر انتحاراً أدبياً) ولا يلزمنا مع ذلك ان نكون كلنا علماء لان ذلك لا يتيسر لكل فرد من الافراد ولكنه ليس من شرف الانسان ان يقعد على جهل تام لان ذلك يحط من مرتبته ومنذا الذي لا يمكنه ان يخصص سويعات الفراغ هذه في تحصيل العلم فيقرأ فيها الكتب المفيدة القيمة والقصائد النظمية لان في ذلك ما يقوي من عزائمنا وارادتنا وهذه هي احسن وسيلة لنسيان الهموم التي تنتج عن الاشتغال في الاعمال اليومية — وعادة يصبح الماء الراكد بؤرة للحشائش والديدان كما أن الفكر الراكد الذي لا تنمى معلوماته فانه تخيم عليه كذلك الخرافات والمعتقدات الخبيثة حتى تفسده وبالعكس يساعد ازدياد معلومات الشخص على أن يكون له أمراً خاصاً في الامور المختلفة ومبدأ يساعده على كل شيء في معترك الحياة

حب الحقائق

فطري في نفس الانسان

فطر الانسان على حبه لمعرفة الحقيقة واكتشافها حتى ان لسان حاله يقول « انني أبحث وادقق لاعرف واتحقق »

وبناء على ما تقدم يجب ان نحترم الحقيقة لذاتها ونبحث عنها ونقدسها تقديساً بل نعبدها عبادة واننا انعجب بهؤلاء العلماء الذين قضوا أعمارهم في البحث عنها وعرضوا أنفسهم للاخطار في كشف الستار عن بعض أسرار هذا الكون هؤلاء العلماء هم في الحقيقة أصحاب الفضل على الانسانية باكملها ويزيد اعجابنا بهؤلاء

العلماء الذين يدافعون عن الحقائق التي اكتشفوها بعد العناء الشديد والصبر الطويل وينشرونها أينما وجدوا وذلك لكونهم يفضلون الموت على الحياة في سبيل اعلانها ورفع شأنها

الصدق والكذب

اذا كانت الحقيقة شيئاً مقدساً فمن أوجب الواجبات علينا ان لا نحوّنها وان لا نغيرها وما الصدق الا عبارة عن احترام الحقيقة احتراماً شديداً وأن يمتنع الانسان امتناعاً كلياً عن ابداء شيء لا يعرفه وعن الجزم بشيء يعرف انه باطل وضده الكذب وهو اكبر عار لا لانه ظلم نحو أمثالنا أو لانه يسلبهم حقوقاً يستحقونها بل لانه أيضاً يلوث كلامنا حيث يحوله عن مجراه الطبيعي لان الكلام يجب ان يكون موافقاً للواقع تماماً

ويستدعي الصدق فضيلة أخرى وهي الاخلاص

وما الاخلاص الا أن يقول الانسان ما يعتقد انه حق بعد التحري الشديد والتجرد عن كل غرض وتستدعى الحقائق دائماً لاكتشافها تجشم المصاعب والمتاعب ولذا كانت ثمينة غالية وكثيراً ما تخطىء حواس الانسان فيحكم حكماً فاسداً ويبنى على هذا الحكم نتائج فاسدة ايضاً ولذلك لتمام الاخلاص يجب علينا ان نذلل كل صعب في سبيل اكتشاف الحق ومع هـذا كله ينبغي ان نكون دائماً مستعدين للتنازل عنه اذا برهن الحال لنا انه فاسد والا كان ذلك عناداً ممقوتاً ومكابرة سيئة (والرجوع الى الحق فضيلة) ومن الاخلاص أيضاً ان نقدر أنفسنا حق قدرها وان نعرف منزلتها بين الناس كما يقول سقراط (رأس الحكمة ان يعرف الانسان نفسه) ولا بد أن نري معايبنا ونقدر أغلاطنا ولو ان هذا امر صعب جداً لان الانسان كثيراً ما يخدع نفسه بنفسه وما أمهره في ذلك ولكن هذه حيل خطرة وخداع يلزمنا ان نتجنبه بقدر الامكان وانه ينبغي لنا ان نضع أنفسنا في المكانة التي نستحقها

أما التواضع ان يقدر الانسان نفسه تقديراً مناسباً للواقع من غير مبالغة فيه كما يفعل الكثير ومن غير تنقيص كما يفعله القليل والحط بالنفس عن منزلتها ليس بالشهامة والمروءة نعم ان التواضع ينفي الكبرياء والعظمة الا ان العظمة تتفق مع شيء

من الشهامة وعزة النفس — تنتج هـذه الشهامة من اعتقاد الانسان اعتقاداً صحيحاً انه مقدر نفسه تقديراً حقيقياً وتوجد كذلك في النهاية فضيلة أخرى مرتبطة بالعقل وهي فضيلة التبصر

فالتبصر هو ان يفتكر الانسان في المستقبل وان يسعى ويشتغل ويحصل على شيء من الرخاء في المعيشة لان هذا من شأنه ان يزيد في عزة النفس وفي استقلالها وايضاً ذلك ما يساعدنا على اداء بعض الفرائض علينا الامر الذي يدعونا الى تجنب الكسل وان ندخر للغد ونعمل ولا نتبع من قال :

ولست بخابئ ابداً طعاماً حذارى غد لكل غد طعام

فمعنى هذا البيت فلسفة يلزمنا تجنبها لان الانسان عرضة في الوقوع في الاخطار فاذا وقع الانسان فيها اضطر الى مد يده الى الغير والاستدانة منه وهذه فيها من الذل والهوان والخجل ما لا تطيقه كل نفس أبية كذلك يجب على الانسان ان يكون نملة في ادخار القوت للاوقات الصعبة العصيبة وان لا نكون صرصاراً يغني طول الصيف ولا يدخر لنفسه شيئاً للشتاء حتى اذا ما جاء البرد أخذ في التسول — اذن التبصر في العواقب أمر يتحتم على كل فرد التحلي به وهـذه الفضيلة يلزم للشبان ان يضعوها نصب أعينهم لان الشباب في الغالب قليل التبصر لما هم عليه من نزق الشباب والطيش في كثير من الاوقات خصوصاً وانهم مسرفون بشكل لا يرضاه العقل حتى اذا ما شعروا باسرافهم ندموا على ما فرط منهم في المستقبل واننا لا نريد بكلامنا هـذا ان نستأصل من الشباب الصفتين العظيمتين اللتين هما حلية الشباب وجماله الا وهما الكرم وعدم حب النفس غير ان التبصر في المستقبل لا ينافي مطلقاً هاتين الصفتين بل بالعكس تدفع الشاب على القيام بهما

٣ — الواجب الثالث نحو الارادة — الشجاعة

قال الاقدمون ان فضيلة الارادة الحقيقية هي الشجاعة وكانوا يلقبونها أيضاً بالقوة الادبية او عظم النفس وليست الشجاعة خاصة بالارادة فقط بل تصاحب وتشترك مع الشعور والفكر فهي فضيلة مشتركة بين قوى النفس اذ لا توجد قوة من تلك القوى الا وتستدعي الشجاعة فمثلا من الشجاعة ان يقاوم الانسان أمياله ومطامعه وان يضبط شعوره وأيضاً في كثير من الافكار التي تجول بخاطرنا لا بد

من وجود الشجاعة لتضبط ما يتغلب منها بعضها على بعض كما ان جميع الواجبات تستدعي كذلك الارادة مصحوبة بالشهامة النادرة

انواع الشجاعة

اولا الشجاعة العسكرية وهي الشجاعة المشهورة والمتداولة أعني شجاعة العسكري الذي يضحي كل غال عنده في سبيل المحافظة على العَلَم الذي بيده كما انه توجد بجانب ذلك شجاعة أخرى وهي شجاعة العسكري الذي لا يريد ان يسلم نفسه الى العدو ومع كونه في حالة لا تمكنه من الدفاع عن نفسه طويلا ثم في آخر لحظة يخرج من حصنه مستميتاً ويلقي بنفسه في صفوف العدو بشجاعة جديرة بالاحترام كذلك لا ننسى مع ذلك الشجاعة الملكية فمثلا الرجل الذي يلقي بنفسه في لهيب النار ليخلص امثاله من الحريق والذي يزج بنفسه بين الامواج المتلاطمة لتخليص الغرقى والحكيم الذي لا يعبأ بانتشار الوباء فيعالج مرضاه بالرغم من انتشاره المريع والقاضي الذي يأبى ان يبرىء مجرماً او ان يصدر حكماً مخالفاً لضميره بالرغم من ضوضاء الجمهور وتهديدهم له فكل هذه أمثلة على الشجاعة المدنية وهي في نظرنا تستحق الاعجاب والاكرام

ليست الشجاعة قاصرة على هذه الاحوال الاستثنائية التي تقدم الكلام عليها بل قد يوجد لها مجال في كل يوم وفي كل ساعة مثال ذلك تحمل الانسان للامراض والاوجاع المزمنة ومقاساته للمصائب الطاحنة الشديدة وتحمل صروف الدهر وتقلباته كل هذه الامور يتحملها الانسان دون ان يتزعزع أو دون أن يفكر في الخلاص منها بطريق الانتحار (لان الانتحار جبن كما أسلفنا) ويعد تحمل كل ذلك من الشجاعة غير ان هذا الشكل منها يعبر عنه بالصبر او التسليم او الرضاء وهذا مذهب من مذاهب الناس المتجلدين الصابرين Stoïciens

وامتازت هذه الفضيلة أي فضيلة الصبر بها طائفة تسمى بمذهب أهل الاسطوانة وكان شعار هذه الطائفة ينحصر في العبارة الآتية (امتنع واجتنب وتحمل)

ومعنى ذلك امتنع مما ترغبه في شيء يخرج عن حدود ارادتك وليس في ارادتك الحصول عليه هذا من جهة ومن جهة أخرى اقبل تصرفات الايام كما

هي بدون ضجر ولا غضب مقنعاً نفسك بانها كانت لا محالة واقعة فاصبر لها دون أن تشكو منها قائلا :

دع المقادير تجري في أعنتها ولا تبيتن الا خاليَ البال

ولكن يلزمنا ان لا نقبل هذا المذهب كما هو فلنحترس من المغالات في هذه النظرية او نحن نقبل بالرضا والتسليم جميع الحوادث الضرورية التي هي نتيجة الضرورة المطلقة والمصائب التي حلت بنا والتي لا يمكن تقدها او اصلاحها كموت انسان نحبه فكل حزن في هذه الحالة لا يجدي ولا ينفع ولكن يكون ذلك منافياً من جهة اخرى لكرامة النفس والشهامة اذا لم يشعر الانسان باسى لحد يقبله الفكر ولكن نصبر على هذه الاشياء والى أي حد نصبرُ والصبر في هذه الاحوال قد ينزل بنا الى حد الخمود ويكاد يضيق صدر الانسان عند ما يقرأ كتاباً في هذا الموضوع حيث يقول بعض الفلاسفة

(يجب أن نتلقى خبر وفاة الزوجة او الولد بعدم اهتمام كما هو الحال عند سماعنا كسر اناء من طين) هذا امر لا نرضاه لانفسنا وان الصبر والرضا بالقضاء لا ينافي الحزن ومن كرامة الانسان ومن شرفه أن يتأثر ويتألم بعض الشيء لمن كانوا عائشين معه وكانوا يحبونه ويكرمهم على ان هذا الحزن يجب أن لا يبلغ حد اليأس والقنوط من الحياة والاضمحلال تحت البكاء والانين ولكن في الامور الاخرى فيما عدا ذلك من الحوادث لا بد من مقاومة المصائب وطردها بقدر الامكان وبقدر ما يستطيعه الانسان ـ ولندخل مساكن الفقراء المساكين الذين حرمتهم الطبيعة نصيباً من الثروة فنجدهم يجاهدون جهاد الابطال في سبيل القيام بمعاشهم وينتقلون كل يوم من مكان الى آخر عارضين أنفسهم للشغل لكي يقوموا بهذا العبء الثقيل فتطردهم الجماعات وتسخر بهم الافراد ومع ذلك يدأبون على البحث وراء العمل دون التذمر من صروف الدهر والقضاء راضون لهذه الحياة الصعبة من غير أن يلحقهم اليأس او يستولى عليهم القنوط هؤلاء هم على شجاعة كبيرة لا يستهان بها ولكن مهما عظمت الشجاعة في الشدائد (الصبر) ومهما بلغ عزم الانسان في ابعاد اليأس والقنوط في المصائب فان هناك شجاعة أندر منها ولكن يظهر أنها تفوقها مرتبة وهذا النوع من الشجاعة هو ما يسمونه بالشجاعة الادبية

فالشجاعة الادبية أن لايبالي الانسان بانتقادات الغير أو ان يتقيد بالعادات والمعتقدات الباطلة والخرافات المنتشرة في البيئة التي تحيط به بل يقدم على العمل

غير ناظر الى استهزاء الناس به او انتقادهم عليه ملبياً فقط نداء ضميره وأوامر عقله

تنحصر الشجاعة الادبية في أن لا يطيع الانسان الا لاوامر عقله ومعتقده الصحيح وأن لا يهتم بما يقال عنه من المدح او الذم اي انه يجب عليه أن يضع نفسه فوق مدح النفس او ذمها فاذا فعل ذلك كان ذا خلق عظيم وانه لرجل يعتمد عليه كريم النفس أبيها

كذلك من الخلق أن يكون الانسان ذا ارادة قوية واعتقاد صحيح معقول راسخ في القلوب فاذا كانت هذه حالة شخص وثبت عليها كانت نفسه ذات طابع مخصوص شخصي اما اذا تجرد الانسان عن الخلق والارادة القوية كان الاجدر به أن يشبه نفسه بعربات القطار التي تسحبها القاطرة في اي جهة كانت

ليست هذه الشجاعة الادبية سلبية كالصبر بل هي موجبة تدعو الى العمل والابتكار ولا تنتظر الارادة القوية تنبيه الغير في الشروع في الاعمال الطيبة بل تقدم على كل عمل بكل تبصر وحزم وتشرع في العمل وتستمر فيه الى النهاية — وتعرف الارادة القوية كيف تستمد القوة التي تلزمها لاتمام العمل وهذا ما يسمونه بالثبات على العمل

وكان الاستوائيون يقولون ان الثبات على العمل بهذه المثابة يشمل جميع الفضائل الاخرى فلا تتغير هذه الارادة التي تثبت على مبادىء واحدة بتغير الظروف والاحوال وهي ارادة منظمة وهذا الانتظام يستدعي العقل وفضيلة الثبات على المبادىء الراسخة المعقولة هي ام الفضائل وبديهي انه لا يلزمنا أن نخلط هذه الفضيلة بالعناد او المعاندة لان المعاندة هي ارادة ايضاً ثابتة ولكن في أمور لا تنطبق على العقل

كيفية تربية الارادة

يلزمنا لتربية الارادة في الاشخاص أن نخلصها من استرقاق الشهوات المضرة والرغبات الملونة لانه اذا تركناها وشأنها تغلبت عليها هذه الاميال وفقدت مركزها نهائياً في الرذائل وهناك رق خارجي ايضاً لا بد من محاربته حتى تظهر فينا الارادة وتقوى ومنبع هذا الرق الطمع والجشع وذلك بان يتسفل الانسان امام قوي او رئيس لينتظر منه فوائد فيما بعد فيطأطىء الرأس حتى امام الوقاحة والكسوف ويعتبر هذا عادة تسفل حقير مدمر للارادة ولكن على الانسان أن يكون في مثل

هذه المواقف مستقلا هذا الاستقلال المصحوب بالطيبة والعدل ولنحترم أنفسنا ونقدرها حق قدرها كما يقول كنت Kente العالم الالماني « لا يلزمنا أن نزحف امام الغير كما تزحف الديدان بل لنحرص على شهامة معقولة تكون حداً وسطاً بين التسفل والكبرياء » وأخيراً يلزمنا فوق ذلك أن نزيد في تقوية ارادتنا وذلك بتقوية العلوم والتعود على احكام العقل في كل شيء حتى بذلك ترسخ في نفوسنا عادات طيبة ثمينة اما لو استسلمنا للرذائل وسقطنا في هاوية العادات الممقوتة فهناك موت الحرية والارادة معاً

ملاحظة ـ وحدة الفضائل الفردية والواجبات الفردية هي العفة والحكمة والشجاعة ولو انه يمتاز بعضها عن بعض الا انها متضامنة متضافرة في ما بينها فالعفة تستلزم الشجاعة في محاربة ما سميناه بالرق الدنيء الداخلي

والحكمة تستدعي الشجاعة حتى يذلل الانسان الصعاب ويقتحم الاخطار التي يلاقيها في سبيل اكتشاف الحق وايضاً بعد الوصول الى الحقيقة يجب علينا بها في أغلب اعمالنا . كذلك من الشجاعة ايضاً ان نتمسك بها والانتفاع بالدفاع عنها وتستدعي الحكمة العفة لان السير في سبيل اكتشاف الحقائق يستدعي التجرد عن الغرض والهوى

كذلك الشجاعة من احوج الفضائل الى الحكمة ولا تقوم بدونها لان الحكمة تدير دولاب الاعمال وتوفر علينا المجازفات الغير نافعة كما تستدعي الشجاعة العفة لانها تسمح لنا بضبط الانفعالات النفسانية وان لا نخرج عن حدود الاعتدال فمن هنا نرى ان هذه الفضائل الثلاثة متماسكة بعضها ببعض

فالحكمة عفة وشجاعة } وهذه الفضائل متضامنة في الوصول بالنفس الى
والشجاعة حكمة وعفة } ارقى الدرجات

تكوين وترتيب الواجبات الفردية او الاخلاق الفردية

العمل

نعرف أن أساس الواجبات الشخصية او الفردية هي ايجاد نفس كاملة من وجوهها الثلاثة أعني تكون نفس ذات احساس عميق آت من أعماق القلب الرقيق وان تكون في الوقت عينه ذات فكر مستنير قوي وملم بمعلومات كبيرة وان تكون ذات ارادة قوية وثابتة وهذه هي الشخصية الكاملة التي يجب علينا أن

نحصل عليها فلا بد لنا اذاً من تقوية كل عامل وكل قوة من هذه القوى المكونة للنفس وان تنميها بدرجة واحدة ـ أما اذا بالغنا في تنمية واحدة دون الاثنتين الاخرتين فان التربية تكون ناقصة وانها لا تؤدي الى النتيجة المطلوبة منها واذا منحتنا الطبيعة قوة قوية من هذه القوى بدرجة عالية فانها غالباً تستمد قوتها من القوتين الاخرتين وانما ليندر جداً وجود هؤلاء الافراد الذين يملكون في آن واحد شعوراً عميقاً رقيقاً وذكاء واسعاً وارادة حازمة ثابتة فكثيراً ما يكون الافراط في الذكاء سبباً في قتل الشعور وكثيراً ما يكون داعياً لمرض الارادة وهو التردد فالواجب اذاً أن نسعى بقدر ما في الامكان لجعل هذه القوى بدرجة واحدة حتى نحصل على شخصية كاملة راقية وهذا ما فهمه أفلاطون من قديم حيث قال ان هذه القوى هي بالنسبة للنفس بمثابة أجزاء آلة من الآلات فلكي تدور هذه الآلة على أكمل وجه ينبغي ان تكون كل قطعة من قطعها في حالة جيدة وكذلك النفس لاجل ان تكون في حالة توافق تام وتوازن كامل ينبغي ان تكون الثلاث قوى في درجة واحدة من الرقي واذا حصل شخص على ذلك كان عادلا فالعدل في نظر أفلاطون هو توازن جميع هذه القوى وتوافقها ويندرج تحت هذه القوى الكبيرة قوى ثانوية فمثلا يندرج تحت الفكر الادراك الخارجي والذاكرة والخيال والتصور وهكذا ينبغي علينا ان نربي ونمي كل قوة من هذه القوى حيث يتبين لك مقدار الصعوبة ومقدار العمل الكبير الذي لا بد من أن نفرضه على نفوسنا في سبيل الوصول الى التربية الحقة وكما يقول بعضهم ان في باطن كل انسان منجماً لا يفنى وكنوزاً لا تقدر ولكنها مخيفة ومختبئة وغائرة وينبغي علينا أن نستخرجها وأن نعطيها قيمتها الممكنة اذ لا بد من أن نعمل ونجد ونسعى في اخراج كل هذه المكنونات ـ فالعمل كلمة حصرت جميع الفضائل الشخصية وكل واجباتنا نحو أنفسنا ولو لم يعمل الانسان ولم يكد في تهذيب هذه القوى الفطرية الجليلة ولم ينقحها ويهذبها بشغله الخاص لبقيت مدفونة ولبقيت طول الايام غير مفيدة فيقول بيقون

نعم ان النبوغ قبل كل شيء استعداد فطري ولكن يجب ان نقول أيضاً انه بدون شغل وعمل وتربية تضعف أجمل المواهب الفطرية وتضمحل حيث قول القائل (الشاعر العربي)

ان الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أى مفسدة

فالعمل له تأثير عظيم في : | (١) الشعور
(٢) الفكر
(٣) الارادة

١ـ أما تأثيره في الشعور فمن شأنه ان ينظم الشعور والرغبات ويمنع من الوقوع في الشهوات البهيمية الغير صحية ـ وكذلك من شأنه ان يلطف الغضب وتأثير الامراض حيث ان كثيراً من الامراض العصبية تداوى بالقراءة في الكتب الطبية اما في حالة الغضب فانه يدخل في النفس الهدوء والطمأنينة كما انه من شأنه أن يقوي الشعور ويرققه لان الانسان يحب عمله الخاص ويتعلق به ويسر لرؤيته بعد ذلك المجهود الطويل ويكون سروره عظيما اذا كان العمل او الشغل الذي اتاه عظيما لانه يعد مقياساً لقدرته وكفاءته على ادائه

٢ ـ ان العمل يقوي الفكر وهذا يكاد يكون بديهياً لان كل عمل من الاعمال يستدعي تقديم مقدمات واستنتاج نتيجة ولا فرق في ذلك بين العمل العظيم والعمل الحقير ويقسمون العمل الى عمل عقلي وعمل يدوي والاشتغال باحدهما مما ينمي ويربي الفكر ولنضرب لك هـذا المثل المشهور وهو ان طفلا كان مكلفاً في اول اختراع الآلات البخارية بفتح وغلق جملة (حنفيات) ومع ذلك وصل الى الخلاص من هـذا الشغل الصعب الشاق الى استخدام قطعة حديدية صغيرة في نفس الآلة البخارية ساعدته على فتح الميازيب وغلقها دون تأدية مجهود كبير كما كان الحال في اول امرها

٣ ـ الارادة ـ يقوي العمل الارادة ولا شيء أحوج الى الشجاعة بانواعها الا العمل لان الاعمال تكون محاطة عادة بالصعاب والعقبات وينبغي للعامل أن يذلل كل ذلك وهو يحتاج بلا شك الى ارادة قوية وشجاعة كبيرة ولذا ترى العامل مهما كان متواضعاً او حقيراً يكون دائماً شجاعاً جريئاً لانه تعوّد اقتحام الصعاب في شغله اليومي وصارت الشجاعة عنده عادة لازمة بخلاف الكسول الذي لا يعمل عملا ما فانه يعد جباناً واقل عمل يربكه ويحيره وعلى العموم اذا كان العمل يقوي العضلات وينشط الجسم ويوفق بين وظائف الاعضاء (اذا لم يبالغ الانسان فيه) فذلك لكونه يجلب تلك الصحة والعافية لنفسه التي هي أساس السعادة ودعامة راحة النفس

العمل وقاية لكرامة النفس وفضائلها

يقولون في المثل المشهور (البطالة ام الرذائل) أما العمل فانه ابو الفضائل . برهان ذلك الاغنياء الذين أمهرتهم الطبيعة بميراث ثروة طائلة فانه يثقل عليهم الوقت لدرجة أن يطرقون ابواباً للتخلص من هذا الثقل حالة الفقير الشريف الذي يكافح طول يومه في سبيل اقتناء قوته فيهرب من الراحة هروباً كما ان عمله هذا لا يمكنه من ان يفكر في الرذائل او ان يطرق أبوابها لان أساس العمل الاستقلال والكرم كما انه شرط من شروط الوفاء والمروءة

فالانسان في هذه الدنيا مضطر الى العمل ومسوق الى الشغل فلا بد وان يغير من وجه الارض التي يسكنها ويحور فيها وينتصر على الطبيعة لانها لم تعط كل شيء لمجرد تناوله والعاملون في هذه الدنيا هم الذين أعملوا فكرهم وبذلوا جهدهم في استخراج ثمرات المقاطعات التي يسكنونها ولذا يقدرون مدنية القوم بما أحدثته أيديهم من التغير في أرضهم كما ان العمل يدعو الى الاقتصاد والتوفير وهي فضيلة من الفضائل الكبرى التي يتوقف عليها مدار العمران الحالي ولذلك تتخذه الافراد والجماعات مقياساً لدرجة ما وصلت اليه حالة بلادهم

كذلك يدعو الاقتصاد في الافراد الى الاستقلال في الفكر والحزم في العمل بخلاف الرجل الذي يصرف كل ما يكسبه في لذة ضائعة الامر الذي يكون عرضة في الظروف الصعبة الحرجة الى بذل ماء وجهه بالسؤال والى مد يده للغير حالة أن الذي يقتصد فانه يكون آمناً من الوقوع الذي وقع فيه المبذر حتى ما بين طرفة عين وانتباهتها يصبح ذلك المقتصد من كبار الاغنياء خصوصاً وان الاغنياء اذا ما اشتغلوا وكدوا فانهم والحالة هذه يكونون أصحاب ثروتين الاولى مادية والثانية أخلاقية الا أن الاولى تصبح من مستلزماتها تأدية الثانية فكلتا الثروتين متلازمتين وعليه ينبغي أن يعمل الانسان بنفسه شيئاً ينسب اليه فيرأس المشروعات العظيمة المفيدة وفي آن واحد يقوم بعمل الصدقات والخيرات فيكمل بذلك واجبه نحو نفسه بجمعه المال لسد جميع حاجياته وما زاد عنها يصرف في سبيل العطاء مع ادخار شيء لنفسه اتقاء شر الطوارىء المستقبلة فيكمل كذلك بعطائه هذا واجبه الثاني نحو الغير

العمل والسعادة

تقدم ان العمل هو سر كرامة النفس والاستقلال والسعادة وقد قال سقراط لاحد اصحابه « اذا اشتغل الانسان فانه يبذل مجهوداً ونشاطاً لا يستهان به وان السعادة لتستمد قوتها دائماً من النشاط كما ان السرور ثمرة المجهود او العمل

الواجبات الاجتماعية

La morale sociale

قلنا في الباب الثاني ان شخصاً منعزلاً بالفكر وبنفسه عن الغير لا يمكنه من القيام بجميع رغائبه ما لم يتكافأ مع اخوانه وأهل جلدته في جميع أعماله لان الانسان مدني بالطبع ولا يمكنه أن يعيش منفرداً وان الجمعية هي الوسط الطبيعي له لان الانسان مهما بلغ من قوة الارادة والشعور والفكر فانه في حاجة شديدة للبحث عن أمثاله ليعيش معهم ومن ذلك تظهر واجبات اخري تسمى بالواجبات الاجتماعية ومجموع هذه الواجبات تسمى بالاخلاق الاجتماعية ولا ننسى أن هناك رابطة متينة بين الواجبات الفردية والاجتماعية وتلك الرابطة متينة لدرجة انهم قالوا بان الواجبات الاجتماعية هي أساس الواجبات الفردية فيها وذلك لان الانسان انما يجتهد في تكميل نفسه وتنمية الفضائل الفردية فيه لكي يصير عضواً عاملاً نافعاً في الهيئة الاجتماعية وبما ان الانسان عضو فيها فان واجباته الفردية هي في آن واحد واجبات اجتماعية لما بين الناس من التضامن الشديد . وان كل عمل شائن يأتيه الفرد فانه يؤثر تأثيراً رديئاً في أمثاله والهيئة التي يعيش فيها . وكذلك اذا أتى الانسان عملا حسناً فان ذلك أيضاً يؤثر تأثيراً طيباً في اخوانه وأمثاله كما انه يمكن ان يقال بان الواجبات الاجتماعية ما هي الا واجبات فردية لان الانسان اذا ما احترم أمثاله وأكرمهم فان في ذلك تكميل لنفسه واحترام لشخصه

تقسيم الواجبات الاجتماعية

الواجبات الاجتماعيـة عديدة منها وجود الانسان عضواً في جملة جمعيات كجمعية كبيرة لخدمة الانسانية التي تحتم عليه القيام بواجبات كثيرة نحوها أعني نحو أمثاله بالرغم من اختلاف جنسيتهم ومعتقداتهم وأديانهم وذلك لكونها عامة دولية

فلا تراعى فيها القرابةوالجنسية والدين كذلك وجود الانسان في جمعية ثانية أصغر من الاولى كالامة التي هي أخص من الاولى حيث يكون على الانسان واجبات فيها يؤديها بالنسبة لمواطنيه وتسمى بالواجبات المدنية Devoirs civils ومواطن الانسان هو حق التوطن بجوار اخيه الانسان ولـكنه يضاف اليه ان يسكن البلد التي يسكنها ذويه . وهي لذلك ادعى للاحترام والمحبة اذا كان مجموع الامم ما هو متعدداً من بني الانسان كما أن لـكل امة عائلات ومجموعها هو ما يكوّن لها كذلك على الانسان واجبات نحو العائلة التي ينشأ بها وتسمى بالواجبات المنزلية

وواجبات الفرد نحو العائلة تضاف طبعاً على الواجبين المتقدمين وسنتبع الترتيب الآتي :

أولا — الواجبات العامة
ثانياً — الواجبات المدنية
ثالثاً — الواجبات الفردية نحو العائلة

اولاً — في الواجبات العامة

أساس الواجبات الفردية احترام الانسان نفسه أعني انه يرفعها الى درجة الـكمال ويتجنب كل ما يحط من قدرها أما أساس الواجبات الاجتماعية فهو احترام شخصية الغير من أمثالنا وهـذا واجب لانه اذا كان شخص الانسان مقدساً في نظره فلماذا لم يقدر شخص غيره ولذلك ينبغي علينا أن نتجنب كل ما من شأنه أن يضايق الغير أو يضر بمصالحهم بل ينبغي فوق ذلك أن نجتهد في تنمية أخلاقهم وفي المحافظة على شرفهم بالسعي وراء ما يشرفهم وهذه الواجبات تتلخص في شيئين ـ الاولى ـ ان لا يؤذي الانسان الانسان أعني ان لا يضره في شخصه او في حقوقه وهذا ما يسمى بالعدل ويتلخص في هـذه الجملة « Ne fait qu'à distribuer les droits à ceux qui las meritent » مثلا انك تعمل مع الغير ما لا تحب أن تعمله مع نفسك وهـذه الواجبات الاولى ضرورية الا انه لا تكفي وحدها بل يجب على الانسان أن يحب الانسان وان يعمل ما في جهده للمحافظة على حياته وشرفه الخ وهـذا هو الاحسان ويمكن تلخيصه في الجملة الآتية (حب للغير ما تحبه لنفسك) وهذه هي الواجبات الثانية ولقد يعبرون عن هاتين الحقيقتين بان الواجبات الاولى وهي العدل سالبة أما واجبات الاحسان أي الثانية فوجبة

لان الاولى حقيقة تكون دائماً في شكل نفي فنقول لا تسرق ولا تقتل ولا تخل بشرف الناس ولكن واجبات الاحسان تكون في شكل موجب مثال ذلك اعط للغير ما يستحق وادفع عنه الضُّر واحرص على شرفه ومع ان هذا هو التمييز بينهما ولكن يلزمنا ان نقول بان هناك عدلا وليس بالسلبي ولا يأمرك دائماً بالامتناع حيث ان هناك نوعاً من العدل كان يسميه ارسططاليس بالعدل الوازع La justice distributive والغرض منه اعطاء كل واحد ما يملك ومعاملته بما يستحق وهذا العدل المتعدي هو وسط بين الاحسان والعدل الحقيقي وأحياناً يعبرون عن هذا بقولهم ان واجبات العدل محتمة الزامية وأما واجبات الاحسان فهي واسعة اختيارية أما في نظر الضمير والذمة فان كلاً منهما اجباري الزامي فمثلا اعطاء الخبز للجائع هو اجباري مثل الامتناع عن السرقة اجباري أيضاً بخلاف ما جاء به القانون Les devoirs de la justice sont strictes, mais les devoirs de la charité sont larges ولكن في نظر القانون واجبات العدل منصوص عنها ومعروفة لدى كل شخص ومنصوص عنها كذلك في قوانين الهيئة الاجتماعية انها غير قابلة للتغيير والتأويل كالسرقة لا يمكن أن يجوزها القانون لكونها قاعدة لا تتغير باي حال من الاحوال واذا لم يحترم الانسان تلك القواعد فانه يقع تحت طائلة العقاب حتى اذا ما احترم مثلا شرف الغير فللغير الحق في انذاره امام المحاكم التي تصدر عليه العقاب المقابل لهذه الجريمة . أما واجبات الاحسان فلا يقال عنها حقوقاً مطلقاً ولذا لا يصح لاي قانون أن يحتمها عليه او أن يلزم الافراد باحترامها مثال ذلك انا غني فهل للفقير ان يجبرني على اعطائه صدقة كلا لانه لا على المحسن من سبيل ولا بد ان يكون المحسن حراً حرية مطلقة وهذا لان الانسان ان كان يحسن مضطراً فاي مزية له في الاحسان وطبعاً موكول الاحسان الى حرية الشخص وارادته وانواع الاحسان تختلف كثيراً عن غيرها من الفضائل ولا يتسنى لاي قانون مهما كان كاملا أن يدونها كلها بل هي متروكة للضمير حيث يقررها على النفس بطريق الالزام والجبر

الارتباط بين العدل والاحسان

ولو ان العدل والاحسان واجبان وفضيلتان مختلفتان الا انهما مرتبطان بعضهما ببعض شدة الارتباط فاذا كان الانسان عادلا فقط بمعنى انه لا يتعدى على

الغير بالاذى ولا يجتهد في التداخل في شؤون غيره بمساعدتهم او مجاملتهم الخ . فيكون بذلك قاسياً ولا شعور له نحو الغير خصوصاً اذا كان الغير في ظروف تقضي بالمساعدة فلا يجب على هذا الرجل العادل في الحقيقة التنازل عن ذرة من حقوقه الا انه ينبغي عليه من جهة اخرى ان لا يحب نفسه لدرجة اثارة الخواطر عليه حتى يكاد هـذا العدل الجاف ينقلب ظلماً حقيقياً لما يولده من الشحناء والاحقاد بين الاشخاص ولذلك لا يكفي أن يكون الانسان عادلا بل يجب أيضاً ان يكون محسناً لان الاحسان بعد العدل يسهل الروابط بين الافراد ويمكـن عرى الصداقة والالفة بينهم وما الاحسان الا تنازل عن بعض حقوق الشخص وتضحيتها اذا لزم الحال حباً في الغير ومع ذلك فيبعد ان يكون الانسان عادلا نحو أمثاله ما لم يكن ميالا اليهم ويحبهم ويحترمهم لان الاحترام نوع من الحب وبالعكس لا يتمشى الاحسان بدون العدل لانه هو حب الغير وطبيعة الحب من طبيعة الوجدان وكل وجدان عرضة للخطأ فاذا أراد الانسان أن يحسن الى الغير فليتجنب كل ما من شأنه أن يحط من كرامة المحسن اليهم ويجب ان لا نقول ان الغاية تبرر الواسطة فمثلا استعمال وسائل الضغط والقهر لحمل الغير على قبول ما نظنه انه الحق بحجة ان هذا يكوّن أفـكاره فانه يعتبر بالاحسان الظالم لان العدل يقضي باتنا لا تنقص من كرامة الغير شيئاً ولا نهينهم وبالمثل اضطهاد الغير وحملهم على اعتناق دين انت معتنقه بحجة ان هذا الدين ينجيهم من عذاب الاخرة فهذا ليس بالاحسان الحقيقي لان الاحسان الحقيقي لا ينفك عن العدل والاحسان معاً فاذا كان يصحبه الظلم كان احساناً ناقصاً او ظالماً وبالاختصار العدل في الهيئة الاجتماعية هو الحجر الاساسي فيها وهو النهاية الصغرى التي لا يمكن النزول تحتها حيث يأتي الاحسان فوق هذا الاساس ويكمله بحيث لا يمكننا أن نقول ان الفضيلة التامة ليست بالعدل وحده بل بمجموعها واتحادهما اتحاداً غير قابل للفك او التحوير

العدل

احترام الغير في أرواحهم والواجب في ذلك . لاجل ذلك لا بد أن نعرف تحريم القتل وحق الدفاع عن النفس والحرب والاعدام والمبارزة

أولا ـ احترام حياة الغير وعدم ازهاق أرواحهم هو اول واجب بديهي يتحتم علينا اداؤه ولقد عرفنا الاسباب التي تحرم الانتحار فـكما انه يجب علينا

أن لا نقتل أنفسنا فكذلك الحال مع الغير اذ يجب علينا أن لا نقتلهم لان قتل الشخص هو منعه عن اداء واجباته وحرمانه من اعطائه حقوقه في هذه الدنيا او بعبارة أخرى القضاء على مستقبل شخص بأكمله فاذاً القتل جناية في حق الشخص كما انه جناية في حق المجتمع الانساني لانه ربما كان يؤدي خدمات جليلة للهيئة الاجتماعية لو عاش صحيحاً معافياً — نعم — قد يجوز انك ظلمتَ ظلماً كبيراً او سُرق منك كل ما تملكه ومع هذا ليس لك الحق فيه أن تقتص بقتل الغير بنفسك فقتل النفس جريمة على كل حال ومع ذلك هذه درجات وأشنع درجات القتل هو ذلك المبني على الطمع وحب المال أما القتل في الدفاع عن العرض والشرف فهو أقل شناعة من السابق لذلك قتل أحد الاقارب وخصوصاً الاب او الام فليس بجرم واحد بل جرمين حتى القتل خطأً فانه في نظر القانون جناية وهو القتل الذي لم تقصده مطلقاً ويؤاخذُ عليه القانون لانه في امكان القاتل خطأً ان يتخذ احتياطات اكثر حتى لا يضر بالغير وليس من الضروري ان يقتل الانسان شخصاً كي يكون مذنباً مجرماً بل يكفي انه أراد ذلك وصمم عليه ولذا يعاقب القانون على كل من شرع في القتل فالذي أراد ان يقتل أحداً ولم تمكنه الظروف الخارجية عنه من التنفيذ هو قاتل أدبي معنوي ويحاكمه الضمير على ذلك ثم يعتبر مجرماً أيضاً الشخص الذي أمر بالقتل او الذي أوعز اليه به او الذي سر به وليس من الضروري ان يخضب الانسان يده بالدماء ليكون مجرماً بل يكفي ان تلك اليد صفقت استحساناً لوقوع القتل ومع ذلك فهذه القاعدة لها استثناءات وأول هذه الاستثناءات هي ما يسميه القانون بحق الدفاع عن النفس

نعم يجب علينا ان نحترم حياة الغير ولكن ما العمل في شخص لا يحترم حياة اخيه الانسان فيهاجمه ويريد ان يقتله ويرى الآخر من جهة اخرى ان له حق الدفاع عن النفس لحفظ حياته واذا لم يفعل ذلك فانه يكون قد انتحر بطريقة غير مباشرة اما اذا دافع عن نفسه وجرح او قتل من هاجمه فليس لاحد أن يلومه على ذلك لان المسئولية في هذه الحالة تلقى على عاتق المعتدى كما يقتل الانسان حيواناً خرج عليه وبهتاً بعد ذلك بقتله فكذلك الحال مع الانسان عند الضرورة القصوى فانه يصح أن يعامل الانسان معاملة الحيوانات الضارية لانه يقتل الحيوان من غير ان يوبخه ضميره مطلقاً حتى ولو كان غير مهدد بالموت من قبل هذا الحيوان

كما انه في حالة قتل الانسان فانه لا يجب قتله الا عند الضرورة القصوى التي يشعر فيها الانسان انه مهددٌ حقيقة في حياته وكان القتل هو الواسطة الوحيدة في الخلاص من هذا الشر ولقد تمكن الانسان اخيراً ان يجرد عدوه من السلاح او ان يوثق اكتافه او ان يضعه في ايدي السلطة الحاكمة فان ذلك خير من القتل حيث ينال المعتدي القصاص العادل من هيئة تتجلى فيها الشخصية المعنوية باجلى مظاهرها

ثانياً — الحرب

يرغب ويتمنى كل انسان أن يأتي يوم تحل فيه المشاكل بين الافراد وبين الدول بلجنة تحكيم دولية وما مرت بضع سنين الا وتحققت الامنية في ذلك ـ كذلك يوجد في امريكا جماعة يقال لهم المرتعشين وهو مذهب انشىء في سنة ١٦٤٧ في الممالك المتحدة انشأه صانع احذية يدعى جورج فوكس وله من الاتباع ما يزيد على ٣٠٠٠٠٠ وهؤلاء يرفضون الاشتراك في الحروب ولننظر الان فيما اذا قتل الانسان في ساحة الوغى هل يعد ذلك ذنباً ام لا ؟ ففي حالة الهجوم على الغير قد يقتل العسكري المهاجم شخصاً لم يره من قبل ولم يسبب له ضرراً مطلقاً ولكن مع ذلك يرى من ألزم اللزوميات ان يقتل من يقابله من العدو في حالة هجومه والا عرض نفسه للقتل ولقد تقع المسئولية هنا في الغالب على من فكر في اشهار الحرب اما في حالة الدفاع فالامر ظاهر بدون شك فاذا ما هوجمت بلد من البلاد فمن الواجب عليها ان تدافع عن نفسها حيث ان موقفها يحتم عليها ذلك واذا كان من شرف الانسان ان يدافع عن نفسه بقتل عدوه المسلح فمن العار ومن الجبن ان يقتل الانسان عدوه الذي سلم نفسه اليه مجرداً عن السلاح كما أنه يعتبر من الفظاعة والوحشية ان يجرأ الانسان على قتل الاطفال والنساء والشيوخ ثم اذا كان القتل للضرورة حقاً من الحقوق فالقتل من غير ضرورة جرم

ثالثاً — الحكم بالاعدام

يدل التاريخ على ان الحكم بالاعدام كان كثير الانتشار في الازمان الاولى وكان يحكم به لاوهى الاسباب لكلمة قالها او لهفوة صدرت منه او لسرقة او لمخالفة الاعتقادات الدينية وفضلا عن ذلك فانهم كانوا يتفننون في القتل ويعملون باساليب

التعذيب وتمثيل الحكومة له قبل القتل حتى يعدمونه على امثلة كثيرة والتاريخ مملوء بالشواهد التي تدل على ذلك حتى القرن الثامن عشر وكان (ريكاريه) اول من ناقش فيه وتساءل هل للحكومات حق اعدام الرجل وقد قال بعدم وجوده وقال ايضاً بعدم فائدته ومن هذا الحين أخذت الناس في محاربة الحكومات على اعدامها الاشخاص حتى نتج عن ذلك تحسين كبير في قلة عدد المقتولين كذلك أصبحت الحكومات في طريقة الحكم بالاعدام لا تحكم به الا في أحوال ضرورية أعني في حالة اذا ما اراق الشخص دم الغير كما انه لا يجب الحكم به الا بعد البحث والتروي الشديد فتحكم وهي آسفة على فقد أحد ابنائها وبناء على ذلك لا يكون الغرض من القتل التشفي كما كان قديماً بل انهـا ما قتلت الا مضطرة للدفاع عن كيانها وتخلصاً من شر هؤلاء الهاجين عليها وتعتبر الحكومة في هذه الحالة امينة على ارواح الاشخاص القائمة بالحكم بينهم اذ من الواجب عليها المحافظة عليهم

أما أصحاب المذهب الذي لا يبيح قتل النفس او الحكم بالاعدام بنوا حججهم على ما يأتي :

اولا — هل الاحكام التي تصدر بالقتل كلها صحيحة ؟ والحقيقة لا — بل يجوز ان يطرأ عليها الخطأ فيقولون يكفي الحكم مرة على بريء بطريق الخطأ في التحقيق حتى يتجنب الحكم بالاعدام عند ظهور براءته

ثانياً — يقولون ايضاً ان الحكم بالاعدام واعدام الناس على ملأ منهم يخشى ان يقسي القلوب ويؤدي ذلك يوماً ما الى ارتكاب القتل لان النظر المتكرر الى الدماء قد يبعث بالنفس حب القتل وارهاق الدماء

وبعد هذا وذاك يلزمنا ان نقول انه مما يجب معرفته والالمام به ان الحكومة التي لا يمكنها ان تحفظ كيانها الا بارهاق الدماء فانها تكون في درجة متأخرة من الرقي والحضارة بخلاف الاخرى التي لو استقامت احوالها دون ان تلجأ الى حكم الاعدام فانها بلا شك من أرقى الامم تمدناً حيث امكنها حفظ كيانها بطريق يدعو الى رحمة العباد ولكن بكل أسف لم تخلق الامة التي أبطلته من الوجود حتى اليوم بل ما من أمة أبطلته الا وأعادته وعلى كل حال اذا كان الحكم بالاعدام ضرورياً فيجب التلطيف فيه بقدر الامكان وهو ان لا يكون علانية بل يجب ان يكون بغاية السكون وبعيداً عن نظر الناس وأمام شهود عدول متنائين عن كل ما من شأنه ايجاد انفعال نفساني وبهذا لا يخشى منه ان ينتج ضرراً كبيراً

ثالثاً — ان عقاب القتل لا يترك مجالا لاصلاح القاتل فاذا حكم عليه بحكم آخر غير القتل ربما شعر هذا المجرم يوماً بفظاعة جرمه وحاسب ضميره عليه وأقلع عن سلوكه هذا وصار رجلا طيباً شريفاً

وسنرى في الكتاب الثاني تأثير الضمير في النفس وحالاته المختلفة حيث تتجلى مجسمة للناظر على مسرح التمثيل محاسبة الانسان نفسه على منصة القضاء الاخلاقي بواسطة حاسته الادبية الا وهي الضمير ليتمكن كل كبير وصغير من ادراك ما يجول بخاطر كل فرد من المساوىء والعيوب التي يعاقبه عليها الضمير بوخزه اياه ومن الفضائل والمحاسن ما يدعو الى ابداء استحسانه فيتخلى الفرد عن الاولى ويتحلى بالثانية

في رواية محكمة الضمير

هي رواية تمثيلية أخلاقية تهذبت على مبادىء علم النفس الصحيح وتكونت من أجل الافراد منزلة وجاهاً وعلماً وحضارة وتمدناً وعزاً حيث يدعو علم الاخلاق الى ما يماثله من نفسانية الرجال العالية لان شبيه الشيء منجذب اليه فاتخذنا من بين أشخاص الممثلين والممثلات فتاة عذراء تكون مثلا أعلى للهيئة التي تحيطها في جميع أطوارها وظروفها كما ان من الاخلاقيات الصادقة ان نرمز لها بالنفس الطاهرة الراقية حيث لا يتجلى الطهر ولا ينبلج ضوء العفاف الا في كل عذراء كاعب ما يدعو الى الاحترام والتبجيل في جميع الامور

ولقد تدل حوادث هذه الرواية على ما سيؤل اليه مستقبل مصر بعد مائة عام حيث يبطل في خلال هذا الوقت حكم الاعدام وتمحيه الظروف ومقتضيات الاحوال من قوانين البلاد فتتخذه الافراد حجة دفاعية في أقوالهم عن أية جريمة كانت متبعين في ذلك ما تمليه عليهم حاستهم الادبية وكذلك عاملين بجميع التعاليم الاخلاقية العالية التي تنص دائماً أبداً على احترام أرواح الغير مهما جنوا من ذنب واقترفوا من اثم «لان عقاب القتل لا يترك مجالا لاصلاح القاتل فاذا حكم عليه بحكم آخر غير القتل ربما احس هذا المجرم يوماً بفظاعة جرمه وحاسبه ضميره عليه واقلع عن سلوكه هذا وصار رجلا طيباً شريفاً» ولقد اتخذت مصر في عصرنا الحاضر يوماً استبدلت فيه حكم الاعدام بأحكام اخرى ما يدعوا الى الاعجاب بها والتي تجعلنا نتفاءل تفاؤلا حسناً فنتنبأ ان البلاد سيكون لها شأن يذكر في مستقبل أيامها ما يؤيد جميع ما أتينا عليه في روايتنا هذه — ولقد تبحث من جهة اخرى

وراء احياء كل من أساءت لهم يد المقدور فماتوا موتاً أدبياً وزواهم القضاء وهم في مقتبل العمر تحت ستر المرض والعجز فراحوا ضحية من ليس لهم ذمة ترعى ومن لم يكن بقلوبهم حنين الانسان لاخيه حيث يموت بين جوانحهم ذلك الضمير الحي غير حاسبين ان الامة لا تحيا الا بأفرادها وان لا سعادة لها الا بهم فمن تهاون في كسب مجهود الافراد العملي بالمحافظة على شخصيتهم البارزة ولو مرة واحدة لكان ذلك سبباً في تأخر حالة البلاد الاقتصادية والمالية تلك الحالة التي يتوقف عليها مركزها السياسي

ملاحظة — سبق تكلمنا عن الواجبات الاجتماعية فأتينا على الواجبات العامة دون سواها وأغفلنا الواجبات المدنية والعائلية وذلك لاننا اكتفينا بما جاء بالرواية التطبيقية من واجبات مدنية وعائلية

الكتاب الثاني

رواية محكمة الضمير

تطبيق علم الاخلاق العملي على علم الاخلاق النظري
بما فيه علم النفس

مستقبل مصر بعد مائة عام
L'avenir d'Egypte après cent ans

اسماء الممثلين والممثلات بديار مصر

١ — قاضي قضاة محكمة الضمير
٢ — عضو محكمة الضمير
٣ عضو محكمة الضمير
٤ — الشيخ عبد العزيز محلف لقاضي القضاة
٥ — الشيخ عمر شيخ الاسلام
٦ — الشيخ ابراهيم محلف لقاضي القضاة

(٤–٦) اعضاء المحكمة الشرعية

٧ — احمد بك فهمي محلف اخلاقي ومن علماء اهل زمانه في العصر الحاضر وحاملا لشهادة الاجرچيه من المعهد العلمي الفرنسي وتزوج باحدى كريمات علماء الفرنسيين
٨ — الاميرة زهرة الآس — اميرة عذراء على مصر وعمرها الثامنة عشر
٩ — احمد بك رئيس تحرير اللواء (وعمره تسعة عشر سنة)
١٠ — الآنسة قدرية احدى محلفات محكمة الضمير وأديبة من أدباء العصر الحاضر
١١ — الآنسة احسان احدى محلفات محكمة الضمير من علماء الاجتماع
١٢ — الآنسة لطيفة « « « « من علماء الطب وعلم النفس
١٣ — الآنسة زينب « « « « من أهل الفنون الجميلة في الشعر والموسيقى والغناء
١٤ — القس فيليب محلف الارثوذوكس
١٥ — لوقا افندي ليسانسيه التجارة وموظف باحد المصارف المصرية
١٦ — مدير الاوقاف لسمو الاميرة زهرة الآس
١٧ — الوالدة وهي حرم حسن افندي احد موظفي دائرة الاوقاف لسمو الاميرة زهرة الآس
١٨ — الحاجبة الاولى — الثانية — الثالثة — الرابعة وكذلك حاجب من الرجال
١٩ — الطبيب رشدي بك
٢٠ — القائد العام للجيوش المصرية
٢١ — ضابط الفرقة نمرة ٢٥
٢٢ — سكرتير القنصلية الايطالية
٢٣ — الوصيفة الاولى
٢٤ — الوصيفة الثانية
٢٥ — قاضي المحكمة الاهلية وأعضاؤها
٢٦ — خادم
٢٧ — المساعد الفني للطبيب رشدي بك

(يلي ذلك اربعون سيدة من أجمل السيدات تقسم الى اربع فرق كل منهـا

عشرة كما انه لـكل فرقة زي خاص بهن ويكون زي الفرقة الاولى الاحمر الوردي الحريري المزركش بالازهار ذات اللون الابيض وكذلك الفرقة الثانية بزيها الابيض الحريري ومزركش بالازهار ذات اللون القرمزي والفرقة الثالثة باللون الاخضر الفاتح ومزركش بالازهار ذات اللون الاصفر أما الفرقة الرابعة فيكون زيها بنفسجي ومزركش بالازهار ذات اللون القرنفلي ويكنّ على جانب عظيم من الرقص الحديث على نغمات الموسيقى الوترية)

(كذلك تستعد فرقة من الرجال لارتداء الثياب العسكرية العصرية الحديثة ذات اربع فرق كل فرقة منها عشرة)

الفصل الاول

المنظر الاول

(ترفع الستار ويتهيأ الفانوس السحري للعمل على الاربعة فرق من السيدات المشار اليهن بأزيائهن المختلفة الالوان وستائر المسرح عبارة عن سماء صافية وليلة قمرية موشاة بالرسوم الطبيعية والزهور المنبثقة للبساتين الغناء والانهار اللجينية وتتمنطق الفرق المذكورة بأجنحة طويلة جداً ترفرف بها عند الرقص على عزف الموسيقى الوترية ويكون الرقص محكماً الخطو دقيق الحركات — ثم يطفأ نور المسرح ويستمر الفانوس السحري في انعكاس الاضواء ذات الالوان المختلفة على الفرق المنوه عنها حتى تتجلى كأرواح تتطاير من جهة لأخرى)

النشيد — (زهرة الحب ابتسامة — وحياة الخير دوامه)

(ثم يدخل عند نشيدهن الشيخ ابراهيم فيشعر بدهشة حيث يرى الارواح بعيني رأسه)

الشيخ ابراهيم — (يتمتم) قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا فما هذا التناقض يا رباه وما هذه الارواح المشكلة في صورة بني الانسان (ثم يرفع صوته مجاهراً لاستقبالها)

الشيخ ابراهيم — مرحى ـ مرحى ـ مرحى ـ ماذا أرى . أأرواح شفافة ام بنات حور قد هبطت لنا من جنة الفردوس نزلا . أم طيف خيال قد سرى

على غير هدى ـ أأشباح ذات ألوان يتلألأ بانوارها الخافقين . ويسطع في الافق بريق ضوئها على ربوع البساتين . ام هي سحر يوسف في جمال محياها . ودقيق قوامها . ورشاقة قدها . وبهاء طلعتها . ام هي ملائكة الله قد نزلت لتنشر رسالة ربها بين العالمين

(عند ذلك لا ينطق منهن احد ثم يسكتن عن النشيد فيقول)

مرحى ـ مرحى ـ مرحى

أناشدكن الله . ايتها الارواح الطاهرة . ويا صاحبة الاضواء الساطعة . أن تجودي عليّ بلفظة أفهم بها لغز اجتماعكن . وعظيم حفاوتكن . وجميل اناشيدكن . وانتظام حركاتكن . فتارة تسرن حثيثاً الى الامام واخرى ذات اليمين وذات الشمال قاطفىء بها حاجتي حتى أقف على حقيقة مآربكن حيث ان الحقيقة بنت البحث

(ثم ترجع الارواح في النشيد ولا تجاوبه) فيعيد سؤالهن مرة اخرى

(فيصفر وجلا مما يراه مغايراً للحقيقة والواقع حيث يقول)

مرحى ـ مرحى ـ مرحى

لقد انفطر قلبي . وعيل صبري . وضاق صدري . فهل من مجيب دعوتي اذا ما دعيته . وهل من ملبي ندائي اذا ما ناديته . فعلام هـذا الصمت والسكوت . والى ما هذا التصدي عن التكرم باجابة ما هو مرغوب . فوالله رفقاً لضعيف مثلي كادت ان تخور به عزيمته . واصبحت ان تنهد به قوته . فهل من شفيق على العباد من رحمة . ومن رحيم على بني الانسان من نجدة . (ثم عند ذلك يتقدم لقطف زهرة من احدى السيدات فيختفي الـكل وتشتد قصف الرعد ويثير الدخان من كل جانب كأنه زلزال كبير ثم يدخل الشيخ عبد العزيز فيرى الشيخ ابراهيم يغط في نومه فيوقظه ثم يكلمه)

الشيخ عبد العزيز — افق يا سيدي الاستاذ افق ولا تغطّ في نومك غطيطاً قد يضر بحالتك وما الذي الم بك اليوم اكنت في غيبوبة المنام ام غشية انتابتك من كثرة الطعام

الشيخ ابراهيم — لا يا سيدي الشيخ انما هي رؤيا عن منظر من المناظر العلوية تجلت لعينيّ عنـد تسبيح المولى جل وعلا حيث رأيت اشباحاً وما هي بالاشباح وارواحاً وما هي بالارواح بل انها ملائكة الله تجلت فيهن قدرته فظهرن امامي باثيابهن المقدسة موشاة بانواع الزهر ومختلف الالوان تسطع عليهن نور

الملكوت حتى انعكس ضياؤه على الارض فالبسها حلة البهاء والجلال . فصرت اناديهن مرحى ثلاث مرات متواليات الا أن الكل صمت حيث خيم عليهن السكون الخالد كأنما على رؤسهن الطير ـ فخرت لنفسي وما فتئت اناديهن للاستفسار عن حاجتهن ولكن انى لي ذلك وقد بلغ السيل الزبى وفاض منه الوطاب حتى اذا ما كنت على كثب من احداهن لاقتطاف زهرة من ازهارها الا وكان الكل لا مرد له حيث اختفت تلك الاشباح عن بكرة ابيها فلم ار امامي سوى تلك السموات وهذه الارض المقدسة منعكس عليها من ضوء قمرها الفضي مختلف الالوان السارة ولم يبق بعد ذلك الا وجه ربك ذو الجلال والاكرام

الشيخ عبد العزيز — تعالت قدرته وعظمت مشيئته فسبحانه تعالى تجلت هدايته على ان ما انتابك من تلك الغشية ما هو الا غطيطك في نومك وكثير أحلامك وشدة تقواك في التسبيح بحمد الله وتلاوتك الآيات تلو الآيات حتى أخذتك سنة من النوم ثم أتتك الرؤيا التي ذكرتها الساعة الى ان فقت من سباتك العميق على اثر رعد السحاب واختلاف حالة الجو التي نشاهدها الآن ولقد ساعدتُ الجو على ايقاظك حيث ان كثرة النوم تضر باعصاب المرء ايما ضر ولكن اعتقادك بالروح كما جاء بالقرآن الشريف (يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا) فلا يمكن معرفتها الا باثرها في الخارج حيث تتجلى مظاهر الحياة الحقيقية في شعورنا وارادتنا وفكرنا حتى اذا ما قمنا بالاحتفاظ بتوازن هذه القوى لامكننا والحالة هذه ان نبعد عنك تلك الاوهام التي هاجمتك عند استمرارك في سباتك العميق . فلا تستسلمن لها لدرجة الانخزال ولا تسترسلن في شغفك الى حد الشطط والانفعال خصوصاً وانك تهذبت في علومك العصرية على مبادىء علم النفس القويم وتمكنت فيما مضى بارادتك بكبح جماح ما تشعر به بين جنبيك من لذة جمال الطبيعة وسحر الاديم

الشيخ ابراهيم — يا سيدي الشيخ . أراك تعزف على وتر النصائح الغالية وترتل على نغمات التقريع العالية ـ الم تعلم ان تقوى الله هي من عظيم الايمان وكبير الاعتقاد عند الانسان فهي اخلاصنا لبارئنا عز وجل وحبنا اياه لدرجة الوله والعبادة فما اوتيت امراً اداً ولا جنيت ذنباً ما بل سردت لك رؤيتي بان الارواح تشكلت امامي بصورة انسان وكدتُ في اوقات الصحو ان اكون قد توصلتُ لمعرفتها وماهيتها فارغب في تفسيرها للملأ حيث أنها أعيت الكثير من العلماء في التوصل

لمعرفة ما النفس وما الروح فهل لك أن تمدني بواسع عرفانك وكبير عبقريتك للوصول الى ادراك بغيتنا هذه

الشيخ عبد العزيز — انك لقد ركبت متن الشطط لفرط وجدانك نحو الله حتى أصبح حبك شغفاً ودفعك شدة شغفك بحب الله الى البحث والتمحيص والمطالعة والفحص والتدريس في ماهية الروح وكنهها وهـذا امر بعيد الوصول الى حله وما عليك الا ان تنظم شعورك حيث يقول الفيلسوف ارستطاليس « لا بد أن نتفلسف مع اميالنا وشغفنا » يريد بذلك أنه لا بد من تحكيم العقل في شهواتنا واميالنا واخضاعهما له بحيث تكون دائماً تحت مراقبة دقيقة اذ الفضيلة تأمرنا ان ننظم هذه الوجدانات للحد اللائق بنا فلا نبالغ فيها لدرجة العته والسفه ولا ان نقتلها فينا لدرجة التجرد عن الانسانية الصحيحة ولقد سمح الكثير من الافراد في تخيلات ولعهم بحب الله لحالة الخروج عن تطوراتهم الانسانية الى ان ضعف العقل لدرجة الزوال فاصبح عديم الفائدة لا يعي المرء لما يقول واصبح حاله كحال مجنون ليلى في شغفه بها وحبه اياها ـ على ان شغفك باثبات الروح ومعرفتها لامر من الامور المثبتة لوجوده عز وجل الا انه لا بد لنا من أن نعتدل في كل مظاهرنا النفسانية ونثبت الوجود بحجج اخرى بما وصلت اليه ايدينا العاملة في تعريف تلك المظاهر وهذه القوى وما دمنا قادرين على تفهمها فلنطرح معرفة ماهية الروح جانباً ونكتفي بما بين ايدينا من المستندات العلمية المبنية على دعائم اخلاقية بحتة

الشيخ ابراهيم - ولكن يا شيخ عبد العزيز ان المرء الذي يتجرد عن كل احساس وكل عاطفة فانه في الوقت عينه لا يكون انساناً حيث ان هنـاك اميالا شريفة وعواطف طاهرة يجب تقويتها وتربيتها خصوصاً في اعلاء كلمة الحق والشغف بعمل الخير كما أن هناك غضباً شريفاً وانفعالات نفسانية كريمة في سبيل ازهاق الباطل ومحقه فلا نقتل في قلوبنا الحب الطاهر والاميال الشريفـة نحو الاخوان ولمواساة الاخوان ومساعدتهم عند الحاجة وتخفيف مصائبهم فاذا كان هذا من الامور الممدوحة فمن باب أولى تربيـة العواطف التي تربطنا بالمسائل المقدسة نحو حبنا لله عز وجل ونحو معرفة كنه الروح وماهيتها والوقوف على جميع حالاتها وضبعاً كل هذا من شأنه ان يزيد في ارادتنا قوة وحرارة حتى لقد يجد الانسان لذة في تضحية أوقاته الثمينة بل نفسه الطاهرة في التحصيل والمعرفة بجميع احوال مخلوقات الله عز وجل وكائناته حيث نجد الكثير من الكاشفين

الجغرافيين من ضحوا الرخيص والغالي في سبيل الكشف والاستطلاع كدريك ومجلان وغيرهما فكشفوا الكثير من المعالم المجهولة حول الارض حتى انتهى الامر بورود الحمام فراحوا ضحية البحث والتنقيب والكشف والتخطيط وعلى ذلك لا بد لنا من أن نعوّد أوتار قلوبنا على ان تهتز لكل عمل عظيم ولكل فكرة راقية وليكن قلبنا مملوءاً بالعواطف الشريفة والشعور الحي الذي يجوزه العقل — على انه أتفق معك في ان حبنا لله يكون لحد ما تمليه علينا أصالة الرأي فيه وان نتخير لانفسنا طريقة الاعتدال في كل شيء

الشيخ عبد العزيز — اتفقنا ما دمت تحكم عقلك في الصغيرة قبل الكبيرة حيث ان معظم النار من مستصغر الشرر لان ما كنتَ عليه عند يقظتك وشدة اهتمامك ببحثك المشار اليه دفعني الى ابداء النصح لك بالاقلاع عنه وأنت خير من يتقبل النصيحة لكبير ادراكك وعظم عبقريتك — والآن يا سيدي الشيخ ما وراءك من الاخبار السارة اليوم

الشيخ ابراهيم — لقد أتت جرائد اليوم بأخبار سارة تدعو الى الارتياح والطمأنينة لانتصار جيشنا الظافر على العدو وتم الصلح على أخذ امتيازات كبيرة مع الدول العظمى ما كنا نحلم بها وعليه ستقوم البلاد باحتفال جيوشها وكتائبها في الاسبوع القادم وتقوم سمو الاميرة زهرة الآس بالتشريف لساحة الميدان لمشاهدة ألعابها الرياضية على اختلاف نظاماتها وهذه عادة اتخذتها البلاد من عهد بعيد عهد العصور الاولى كعصر الحجر وغيره من العصور المختلفة عقب النصر وهي محمودة في ذاتها حيث يجب ان يكون للامة شعوراً حياً خاصاً تظهره لكتائبها مكافأة لها على ما اتته من نصر مبين وما الكتائب عندنا وعند الامم الا وديعة لتحمي اعراضنا وانسابنا واحسابنا واموالنا وولداتنا كما ان لكل امة شجاعة تمثلها جيوشها وهي الواجب الثالث للارادة حيث قال الاقدمون ان فضيلة الارادة الحقيقية الشجاعة وكانوا يلقبونها بالقوة الادبية او عظم النفس وليست الشجاعة خاصة بالارادة فقط بل تصاحب وتشترك مع الشعور والفكر فهي فضيلة مشتركة بين قوى النفس اذ لا توجد قوة من تلك القوى الا وتستدعيها حيث ان من الشجاعة ان يقاوم الانسان أمياله ومطامعه وأن يضبط شعوره وافكاره التي تجول بخاطره فلا يطلب الحرب والنزال الا بعد استعمال الروية مع معرفة استعداد

الامة للقتال من عدمه اما في بحثنا عن استعراض الجيوش والـكتائب فلها شجاعة تسمى بالشجاعة العسكرية المشهورة المتداولة أعني بذلك شجاعة العسكري الذي يضحي كل غال عنده في سبيل المحافظة على العَـلم الذي بيده والذي سلم اليه كما انه بجانب هـذه الشجاعة توجد الشجاعة الهادئة وهي شجاعة ذلك العسكري الذي لا يريد ان يسلم نفسه للعدو مع كونه في حالة لا تمكنه من الدفاع عن نفسه طويلا ثم في آخر لحظة يخرج من حصنه مستميتاً ويلقي بنفسه في صفوف العدو بشجاعة جديرة بالاحترام كذلك لا ننسى مع ذلك ـ الشجاعة الملـكية ـ كالرجل الذي يرمي بنفسه في لهيب النيران ليخلص أمثاله من الحريق والذي يزج بنفسه بين الامواج المتلاطمة لتخليص الغرقى والحـكيم الذي لا يعبأ بانتشار الوباء في تطبيب مرضاه والقاضي الذي بالرغم من ضوضاء الجمهور وتهديدهم اياه يأبى ان يبرىء مجرماً او ان يصدر حكماً مخالفاً لضميره كل هـذه أمثلة على الشجاعة المدنية وهي في نظرنا تستحق الاعجاب والاكرام ـ ثم يا شيخ عبد العزيز ليست الشجاعة قاصرة على هذه الاحوال الاستثنائية بل قد يوجد لها مجال في كل يوم وكل ساعة كتحمل الانسان للامراض والاوجاع المزمنة ومقاساته المصائب الطاحنة الشديدة وتحمل صروف الدهر وتقلباته كل هذه الامور يتحملها الانسان دون ان يتزعزع او دون ان يفكر في الخلاص منها بطريق الانتحار (لان الانتحار جبن) اذ تحمل كل ذلك يعد من الشجاعة بمعنى الـكلمة غير ان هـذا الشكل من الشجاعة يعبر عنه بالصبر والتسليم او الرضا وهـذا مذهب من مذاهب الناس المتجلدين الصابرين وهم اهل الاسطوانة اى مذهب رينو stoïciens - (Stoïcisme) . ثم ارجع بك الى جيشنا وما به من شجاعة فان الامم قاطبة لا تباهي الا بشدة منعتها الحربية وعظمتها البحرية وقوة جاهها في تدريب امور كتائبها واني اليوم لافتخر بشدة بأس جيوشنا الظافرة وخبرة قوادها وحسن نظامها وكمال عدتها وعددها التي استحضرت من الطراز الاول فاهنئك يا شيخ عبد العزيز بظفرنا الحديث وبهذا الاحتفال المقبل وها هي بطاقة اهديكها للتشريف بالاحتفال المشار اليه

الشيخ عبد العزيز ـ اشكرك كثيراً على ما اوليتني به من سليم ذوقك وجميل خصالك وحميد اخلاقك الدالة على طيب اعراقك وكبير محتدك ـ ولقد نوهت يا سيدي الاستاذ في بحثك الذي نطقت به الساعة ان من مستلزمات الجيوش والـكتائب الشجاعة كما ان من مستلزمات الامم وحضارتها تكوين كتائب جرارة

المحافظة على وطنها المفدى الا انني ارى ان الشجاعة وديعة كامنة وفضيلة مكنونة في النفس لا تظهر ولا تتجلى للعيان الا عند أثرها في تربية الارادة بتخليصها من استرقاق الشهوات المضرة والرغبات الملونة لانه اذا تركناها وشأنها تغلبت عليها هـذه الاميال وفقدت مركزها في الرذائل نهائياً كما ان هناك رقاً خارجياً أيضاً لا بد من محاربته حتى تظهر فينا الارادة وتقوى ومنبع هذا الرق الطمع والجشع وذلك بان يتسفل الانسان امام قوي لينتظر منه فوائد فيما بعد فيطاطىء الرأس له فتضعف ارادته كما هو الحال بين الامم القوية والضعيفة فيطمع القوي بالضعيف ويسترسل الضعيف في امتثاله فتضعف ارادته ويكون من وراء ذلك الحط من كرامته ولقد قال كنت العالم الالماني « بانه لا يلزمنا أن نزحف أمام الغير كما تزحف الديدان بل لنحرص على كرامتنا المعقولة حتى تكون حداً وسطاً بين التسفل والـكبرياء » وعليه يلزمنا أن نزيد من تقوية ارادتنا وذلك بتقوية العلوم والفنون والتعود على احكام العقل في كل شيء حتى بذلك ترسخ في نفوسنا عادات طيبة ثمينة ـ كذلك لتكن الحـكمة رائدنا أنى ذهبنا واينما حللنا ولـكل انسان ان يفكر أولا في العمل الذي يريد تنفيذه حتى بذلك يحكم تأديته بطريقة معقولة فمن الشجاعة تحصيل العلوم التي نريد ذكرها هنا بعد تكبد المشاق والصعاب كالـكشف الجغرافي وهي تلك الدراسة العالية التي تؤثر في تقويم الاخلاق أحسن تقويم فتطلعنا على عظم الكون وجماله فترينا هـذا النظام العجيب والقوانين المحكمة والترتيب النادر ما يبعث في نفوسنا حب النظام والسير بمقتضاه في سلوكنا وأعمالنا ونخص من هذه العلوم علوم اللغة سواء كانت أثرية قديمة أو حديثة وآدابها التي يحق لـكل امة ان تفخر برقيها فيها وقد ذكر أحد الـكتاب الفرنسيين عند انتصار الالمان في حرب السبعين حيث قال

« يحق لـكم أيها الالمان أن تفخروا بكل ما امتلـكتموه من الذهب الاصفر الوهاج والارض الخصبة غير انه ينقصكم شيء تافه في لفظه كبير في مبناه عظيم في معناه وهو شاعر يتغنى بمجدكم الاثيل كشاعرنا الذي يبكينا على مصابنا الاليم » وعلى ذلك ترانا ياشيخ ابراهيم نهلل للجيوش والـكتائب دون ان نحمل حساباً لنتائجها السيئة حيث من ورائها الخراب الجائر ودماء الانسانية الهاطل فنفقد شباب ولداتنا وأفلاذ اكبادنا وخيرات بلادنا غير حاسبين ما يحسبه علماء المالية والاقتصاد من ان الجيوش معتبرة مصاريف زائلة مستهلـكة غير مثمرة فما بالك ياسيدي الشيخ تتمشدق

تهليلا وتكبيراً لها فكأنما تهلل بأمر لو حكمت فيه عقلك واسترسلت ملياً في مطالعتك لوقفت على الكثير من الاموراتي تدعو لحقن الدماء وزوال تلك الجيوش الغير مثمرة

وليس على الرحمن بمستنكر ان يجمل العالم في واحد

على ان الواجبات الاجتماعية التي هي أساس للواجبات الفردية تنص دائماً على احترام الجماعات وشخصية الغير من أمثالنا كما انه يجب ان لا يؤذي الانسان الانسان في شخصه او حقوقه الامر الذي نستدل منه على ان العدل هو الذي يدعونا للنظر ملياً في مسألة الحروب وازهاق الارواح حيث ان من العدل والاحسان ان لا نقتل الغير لان قتل الشخص هو منعه عن اداء واجباته وكذلك منعه عن اعطائه حقوقه في هذه الدنيا او بعبارة اخرى القضاء على مستقبل شخص بأكمله دفعة واحدة فاذاً القتل جناية في حق الشخص كما انها جناية في حق المجتمع الانساني ولارجع بك الى قتل الانسان في الحرب هل هذا يعتبر جناية ام كيف ؟ نحن نعرف حق المعرفة يا شيخ ابراهيم بان كل انسان يتمنى من صميم فؤاده ان يأتي يوم تحل فيه المشاكل بين الافراد وبين الدول بلجنة تحكيم دولية ولقد تحققت هذه الامنية في الحرب العظمى بلجنة تحكيم عصبة الامم كما انه يوجد جماعة في اميركا لا مبدأ لهم سوى رفض الاشتراك في الحروب ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «امرت بان احارب باللين وبالشدة فوجدت اللين أقطع من السيف» ويكفي أن بلاد سويسرا قائمة حكومتها على دعائم السلام فهي دولية غير حربية

الشيخ ابراهيم — تقول يا شيخ عبدالعزيز ان التقليل من الجيوش والاكتفاء برجال الشرطة أمر يدعو الى توطيد دعائم السلام والعدل ونسيت ان من العدالة بين الناس كما ان من الواجبات الاجتماعية في الهيئة الحالية ما يستدعى الدفاع عن النفس ولأضرب لك مثلاً ان امتنا عرضة لمطامع الفاتحين وجشع المغيرين لما هو موجود فيها من خير عميم وثروة زراعية فياضة على الاهلين فكيف والحالة هذه تريد ان نجرد أنفسنا من السلاح والكتائب

مع ان الاخلاق تنص بأن من شرف الانسان أن يدافع عن نفسه لحفظها من اعتداء عدوه المساح حيث تتجلى في الدفاع عن النفس تلك العدالة بأحلى مظاهرها.

وما حكم مركز سويسرا في العصر الحاضر الا لتتساوى أغراض الطامعين فيها

(عند ذلك يأتي الخادم ويخبر الحاضرين بحضور شيخ الاسلام فيهرع الشيخ

عبد العزيز للقياه ثم يجلس الكل في فناء المسرح بعد السلام)

شيخ الاسلام — السلام عليكم ياحضرات الاساتذة — ما وراءكم من الاخبار وما الذي يدور على السنة العباد بهذه الامصار فهل من جديد نلتذ لسماعه أم من قديم يحتاج لكرة النظر فيه لساعته

الشيخ ابراهيم — أما ما عندنا من الاخبار فهو احتفال كتائب الامة وجيشها القاهر بما عاد عليها بالنصر المبين

شيخ الاسلام — ومتى هذا . اني لا أذكره بعد

الشيخ ابراهيم — في الاسبوع المقبل ياصاحب الفضيلة

شيخ الاسلام — وهل ستنصب السرادق والخيام وترفرف البشائر والاعلام في جميع خطوط الميدان

الشيخ ابراهيم — نعم — سيكون هذا الاحتفال الكبير من أبهى ما أوجدته الامة حتى الحين

شيخ الاسلام — عظيم — عظيم — الا أنني عند ولوجي باب داركما سمعتكما تتناقشان وتتناظران فما كان موضوع حديثكما ومناظرتكما (عند ذلك يحضر الخادم بطاقة أحمد بك فهمي العالم الكبير وهو صديق حميم للشيخ عبد العزيز حيث ذهب اليه لاستقباله هاشاً باشاً فرحاً بلقياه)

احمد بك فهمي — السلام عليكم ورحمة الله وبركاته كيف صحتكم ياصاحب الفضيلة وكيف حال المعاهد عندكم

شيخ الاسلام — الحال على ما يرام ياسيدي البك (ثم يسلم احمد بك فهمي على الشيخ ابراهيم)

الشيخ عبد العزيز — اقدم لصاحب الفضيلة حضرة صاحب العزة احمد بك فهمي كبير علماء القطر الذى سافر الى فرنسا منذ حداثة سنه فحاز قصب السبق في جميع العلوم التي تخصص فيها الى ان حاز شهادة الليسانس فالعالمية من الدرجة الثانية دكتراه فالعالمية من الدرجة الاولى وهي الاجريجية Agregé التي تعد من اكبر شهادات فرنسا ولا يستطيع لأجنبي عنها ان ينالها ولكن بفضل نسبه وصل احمد بك فهمي الى نوالها حيث تزوج بكريمة أحد علماء المجمع العلمي الفرنسي الكبير (الاقاديمية) وذلك لمساعدته في جميع مصنفاته وأصبح له الفضل الاسبق في خدمة الامة الفرنسية ومؤلفاته هذا على أنه ما برح يخدم فرنسا بما تلقنه من علومها

في أيام دراسته حتى صار ممن يعدون على الاصابع بين كبار الفرنسيين — والآن سيخدم امته بما عهد فيه من سعة الاطلاع وكبير المعرفة

شيخ الاسلام — لقد تشرفت بلقياكم ياسعادة البك كما انشرحت صدراً لما أنتم عليه من طول الباع في العلوم الحديثة وعلى ما وصلت اليه أيديكم العاملة في الوصول لأرقى الشهادات العالية فهنيئاً لكم أولا وهنيئاً لنا جميعاً بل وهنيئاً لامتنا في أبنائها البررة

احمد بك فهمي ـ حفظكم الله يا صاحب الفضيلة ولا يسعني ازاء ذلك الا ان اسدي لفضيلتكم عظيم شكري وكبير ممنونيتي على حسن رعايتكم بي وجميل تفضلكم بمقابلتي هذه

الشيخ عبد العزيز ـ كذلك أقدم لكم يا احمد بك فهمي الشيخ ابراهيم من كبار أهل الدين المحلفين بالمحكمة الشرعية

احمد بك فهمي ـ نتشرف يا سيدي الاستاذ

شيخ الاسلام — بلغنا انكم تزوجتم يا فهمي بك من بنات اهل الفرنجة وعلى أثر ذلك اصبحتم ممن يلمون بعاداتهم وأحسابهم وأنسابهم فهل لكم ان تتكرموا بسرد بعض الشيء عن تلك العادات وهل وفقتم مع زوجتكم على تفهم بعضكم البعض حيث ان الكثير من اخوانكم الذين سبق لهم التأهل من أهل الفرنجة لم يمكنهم حتى اليوم ادراك ما بينهم من زوجية وذلك لاختلاف مذاهب الزوجين ديناً ودنيا كما أنه لم يتمكن أحدهما ان يصل لنقطة حسن التفاهم بالرغم من اجادتهم لغة تلك البلاد ويرجع ذلك طبعاً الى ما بين البلدين من مختلف المشارب والعادات والاهواء

احمد بك فهمي — حقاً ما تقول يا صاحب الفضيلة ان اختلاف المشارب والاهواء بين البلدين أمر ظاهر للعيان كالشمس في رابعة النهار حيث تتجلى رقي تلك البلاد لدرجة تدل على أنها أخذت قسطاً وافراً من المدنية والحضارة بينا أننا لا نزال في الخطوة الاولى من التقدم والارتقاء الا أنها معدودة عند أولي العزم والحزم من الخطوات الكبيرة الواسعة العديمة النظير وهذا مما يبرهن على ان شعبنا المحبوب يتقدم الى الامام على هذا المنوال لفرط ذكائه ولاستعداده الفطري للمدنية الصحيحة الحاضرة وكذلك بفضل حركة تطوره الغريب فيها الذي نشاهده اليوم من وقت لآخر — أما بخصوص العادات الوطنية ومقارنتها بالاجنبية كالتي شاهدتها بفرنسا فان بلادنا لا تزال تخضع تحت تأثيرها القديم فتشعر بضعف

ارادتها أمام الكثير من الخرافات خصوصاً بدعها التي يراها كل ذي بصيرة وقادة وفكر صائب أنها حجر عثرة في سبيل نشوئها وارتقائها — الا أنه يجب علينا ان لا نيأس أمام تلك الخزعبلات ما دمنا محكمين فكرنا فيما يرجع على البلاد من خير وما دمنا نشعر ونعرف وجوه الشر التي تؤدي بنا حتما الى سوء العاقبة فنتجنبها ونتخلى عنها على ان استئصال تلك العادات أمر من الصعب تنفيذه دفعة واحدة حيث ان السواد الاعظم من الافراد لا يزال يعتقد فيها ويخضع لتأثيرها الفعلي المكتسب من اب عن جد فيشب المرء على ما عوده أبوه ولكن هل يمكننا في هذه الحالة ان نجد سبيلا للقضاء على تلك العادات حتى تخلص العباد من استرقاقها لهم — يقولون علماء الاجتماع ان التعليم والتهذيب للنفس ومظاهرها من المسائل اللازمة لاستئصال شأفتها خصوصاً عندما يتمكن المدرس من تثقيف العقل على أحدث طرق المدنية الصحيحة وتهذيب الشعور الى الحد اللائق بالفرد مصحوبة بارادة ذات روية وفكر فانه لمن المستطاع الضرب على الخرافات بيد من حديد مثال ذلك ظهور الخيال (العفريت) وشدة اعتقاد الافراد فيه دون أن يكون عندهم مدلول حسي لاثباته فلو فكرت الناس ملياً بأن تسائل نفسها عما اذا كان هذا الخيال يمكن لمسه أم لا ؟

وهل له شكل يتناسب مع اعضائه ؟ فيجيبون على ذلك بقولهم « لا نعرف » بل المسأله موكولة على السماع — وعليه يجب علينا أن نستعمل أصالة الرأي في اثبات وجوده ثم بعد ذلك نحكم اذا ما كان هذا النوع من الشياطين له صفة تؤدي الى اساءة الغير كما يزعم الكثير من الافراد أم هو محض اختلاق للخوف في كلٍّ ؟ ولقد يتسلط الوهم على الاشخاص لدرجة ان مجرد ظهور ظل لأي شخص يعتقده لأول وهلة أنه خيال (عفريت) ظهر له لمعاكسته ولذلك يدب الخوف في قلبه لأن شدة شعوره وميله بل وشغفه الى الحرص على نفسه من أذى الغير يدعو الى تسرب الجبن اليه وهي نتيجة سيئة نتجت أولا عن ضعف عقليته للاستسلام للاوهام وثانياً لضعف ارادته في مقاومة ما يشعر به من الشغف الشديد نحو المحافظة على شخصه فكأن مظاهر النفس عنده ألا وهي الفكر والشعور والارادة قد اختلت أوزانها — فضعفُ العقل وازدياد مظهر الشعور لحد الشغف وخور الارادة الى التلاشي لما أدى الى نتيجة قبول الاوهام والى تولد الجبن مع ضعف العزيمة — هذه ياصاحب الفضيلة عادة من عادات البلاد عندنا تفشت فينا لعدم توفر تربية مظاهر النفس فلو

عالجناها بما ذكرته الآن لتلاشت تلك الخرافة ولاستعد الفرد للسير الى التقدم والفلاح — هناك كذلك عادة اخرى وهي عادة الاعتقاد في المشايخ والاضرحة والاولياء — حقيقة ان فيها من عمل الخير ما يساعد الكثير من الافراد الموجودين في خدمتها كل المساعدة ولكن لا يأخذ بنا الامر الى حد يدعونا ان نعامل الضريح معاملة النبي صلى الله عليه وسلم أو معاملة الله عز وجل كما كان الحال عند قدماء المصريين الكهنة الذين كانوا يعبدون الله مقربين اليه بالاوثان المنصوبة والاصنام المزعومة حتى اذا ما أتى عهد احفادهم لقيام الصلوات فيها ضلوا سبيل التقرب الى الله عز وجل ظناً منهم انما الله هي تلك الاوثان وهذه الاصنام وذلك راجع طبعا لعدم استعمال الروية والفكر فضلوا سواء السبيل — وأدهى من هذا وذاك انه لا يزال في عصرنا الحاضر قواد جيوش المماليك في مصر محلا للزيارة معتقدين في هذه الاضرحة أنها لاولياء الله ورسله وأنبيائه فخرجوا عن الحقيقة اذ اقاموا الدليل الوهمي على الاعتقاد في مقام السلطان حسن وقلوين ذلكم الافراد الذين كانوا من عتاه الجبابرة في عصورهم الماضية فعلى أيديهم تفشت الفوضى لانتشار الاستبداد فيها وبقوة زعامتهم الفاسدة سرت السرقات والاختلال بالامن والعبث به في شرايين القطر ولتجدهم اليوم يعاملون معاملة الانبياء تلك المعاملة التي لا تعتبر الا من اكبر الضلالات والكفران العظيم وذلك لوجود غشاوة على عقول الافراد لدرجة أن سارت بهم الى تلك الخزيات — وأقبح من كل ذلك عندما يخطأ الانسان في حياته بأن يأتي أمراً يخالف الآداب العامة فيقول عند توبته لقد ضل بي الشيطان حتى جنيت كذا فخدشت الآداب العمومية — ولكن الحقيقة يا صاحب الفضيلة ليست كما يدعى ويدعون بل يرجع خطيئته وسيئته الى ما يشعر به من شهوة ولم تردعه عنها عفته حيث اشتد عليه شغفه بوازع اللذة وضعفت ارادته أمامها وبذلك استسلمت عقليته فاتبع هواه الى ان ارتكب خطيئته المشار اليها — كالنظر الى السيدات الامر الذي لا يجوز لنا التحملق الشديد اليهم فلا نتبع النظرة النظرة لان الاولى لنا والثانية علينا — أما دعوته ان الشيطان تمكن منه وسبب له هذا الخطأ فأمر بعيد عن الفكر بعيد عن الصواب — هذه مسائل لو تهذبت لها نفوسنا لأصبحنا بفضل هذا التهذيب رجالا عاملين قادرين على كل صغيرة وكبيرة في سبيل الرقي والعلا — أما في بلاد أهل الفرنجة من العادات فبفضل مدنيتهم ولكثرة مشاغلهم الدنيوية وخصوصاً ان زمن العواطف

مضى وانقضى وان زمن المادة اليوم قد حل محلها في جميع بلادهم فأصبحت هذه العادات تتهيأ للتلاشي والزوال رويداً رويداً بفضل نشر العلوم الصحيحة وتهذيب النفوس على الوجه الاكمل وصارت كل أفراد جيل يتهيأون لاستئصال كل ما هو قديم مشوه للحضارة والرقي لانهم شعروا لاول وهلة ان عاداتهم القديمة لا تزال موضوع تأخرهم فتجدهم يجتهدون على زوالها من حيز الوجود حتى بفضل مثابرتهم على استئصالها تمكنوا من العدو الى الامام في سبيل المدنية الراقية ولقد تمكن بعض الامم من امتلاك ثلاثة أرباع الدنيا وذلك بفضل عدم اتخاذ عاداتهم القديمة في أعمالهم الحيوية — على أنه لا يزال بين تلك الامم الغربية عادات شعرت لها بانه لا يمكن الاستغناء عنها لانها مثال حسن لقوميتهم ومثل أعلى لوطنيتهم بين ربوع بلادهم كالاعياد المختلفة (الكرنفال) واحياء ذكرى حكوماتهم العادلة والاهتمام بالاحتفال بكل بطل يأتي بأعمال النصر في ميادين القتال وهذا طبعاً تشجيع للغير من أبناء جنسه على ان يحذو حذوه وهكذا — الا أن هناك عادات تخالف عاداتنا في أحوال نسائهم حيث أن خروجهن سافرات لما شجع الرجال على القيام بوافر الاعمال لان المرأة تساعد الرجل في جميع أعماله اليومية بل وتشاركه في كل ما منه اسعاد أحوالهم الاجتماعية حالة أننا نرى ان نظام الحجاب عندنا ما يجعلنا نفقد ذكاء النساء فينا وأدى بنا هذا الى التقاعد عن السير الى الامام في مضمار الحياة الراقية الصحيحة — ثم لا ننسى رقي الاسلام عندنا في غزو مصر بقيادة عمرو بن العاص الذي تمكن بدهائه ابطال اهداء عروس في مقتبل العمر الى النيل عند ابتداء فيضانه باغراقها فيه حيث كانت أعماله لسان حالها يقول « يا أبناء مصر اجدكم كما تدعون تقدمون عروساً من بني الانسان في مقتبل العمر لشيء من الجماد الكائن غير الحي وهل يتفق أن تمنح الكائنات التي لا تحس ولا تشعر والتي ينقصها قوى النفس العالية عروساً تتجلى فيها مظاهر نفس طاهرة لو زفت لمن يماثلها من رجال مصر لانجبت ولداناً بررة يعملون على اسعادها واسعاد بلادهم وعلى رفع كلمة الحق فيها بل وعلى نشر لواء المجد المؤثل والطمأنينة الخالدة في جميع ارجائها » — وعلى ذلك عندما تجلت في أعمال سيدنا عمرو الحق الصراح للمصريين رضخوا لها وأذعنوا لأوامره وأرشدهم الى عمل عروس من طين كي تتوافق مع معدن النيل نفسه وتكوينه لانه كما تعلمون ان هذا النهر ما هو الا عبارة عن طين ومياه وعليه لا نزف الى النيل الا ما يماثله ولو فعلنا ذلك لاصبح النيل أكثر فيضاناً عن ذي

قبل وعما كان عليه بالامس ـ عند ذلك حدث بطريق الصدفة ان طرأ على النيل زيادة منسوبه في فيضانه فاستبشروا خيراً لها وتأكدوا ان اعمال سيدنا عمرو جديرة بالاحترام ورسخ في اعتقادهم ان هبة الشيء للشيء الذي من معدنه هو من أجل الهبات ومن احسن العادات ـ هكذا تمكن سيدنا عمرو بدهائه الخلاب وسحر بيانه وشجاعته النادرة الى استئصال عادة من أخبث العادات ـ استأصلها شيئاً فشيئاً وذلك لانه لو اراد منعها دفعة واحدة لانهزم أمامها فما أشد على نفوس الافراد من بتر عادة من عاداتهم خصوصاً وان القوم كانوا على مقدار عظيم من الجاهلية الاولى الامر الذي يحملهم على الاحتفاظ بعاداتهم لحد عطش المحموم ـ كذلك أرجع بك الى عادة من عادات أهل الفرنجة حيث شاهدتُ مرة في طريقي باحدى القرى الفرنسية ان صياداً خرج للصيد على ضفاف نهر السين عند الصباح فصادف في سيره قطاً اسود وعند مشاهدته له قفل راجعاً قائلا لي ان هـذا القط الذي رأيته الساعة فأله سيء عليّ ولذلك قفلت راجعاً لان يومي هذا أصبح نحساً ولقد تشاءمت به ـ عند ذلك نصحته بان يستمر في عمله شارحاً له بان هذه عادة من العادات التي تسير بك وبشعبك الى الوراء خصوصاً وانكم اتخذتموها عن الايرلانديين وانه لمن العبث أن تفقد يومك بدون أن تحصل على قوتك فيه وأنت أحوج لقوت يومك عن غيرك فامتثل اليّ ولنصيحتي ورجع الى عمله ـ على ان هـذه العادة لم يأخذ بها جميع الفرنسيين وكذلك جميع الايرلانديين فهي تكاد تتلاشى من حيز الوجود ـ

شيخ الاسلام ـ لقد نوهت كثيراً في أقوالك يافهمي بك عن عادات بلادنا ونسيت ان لنا ديناً يجب علينا الاخذ بفرائضه كما ان لنا قومية يجب علينا الاحتفاظ بها والدفاع عنها فلا تلهينك عن دينك لذة المدنية الكاذبة ولا يغرنك ما عند اهل الفرنجة من لذيذ حياة الدنيا الزائلة فهم يعملون لدنياهم وينسون آخرتهم حيث يقول حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم « اعمل لدنياك كانك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كانك تموت غدا » فديننا دين العواطف دين التسامح دين الاخاء بل دين الفضيلة والمروءة والوفا . دين العدالة والحرية الصحيحة والمساواة كما انه دين الاشتراكية البحتة وان انتقادك على ما عندنا من أولياء الله وأتقيائه واتخاذك لهم بانهم عادات خرافية وأوهام اهل الجاهلية الاولى لم يكن شاملا جميع نقط الموضوع باكمله حيث أتيت على نقائصها ونسيت محاسنها وفضائلها لان لكل شيء

في الوجود محاسن وفضائل كما ان له مساوىء وعيوب ونقائص مختلفة ـ حقاً لقد ذكرت من عيوب أفراد الامة ما يدعونا جميعاً الى العمل على تقليلها بل وعلى استئصالها الا ان هناك مسائل اجتماعية منبثة في عاداتنا القديمة لو تنعمت فيها قليلا وفحصتها فحصاً دقيقاً لالفيتها من أجل الصفات وأحسن العادات ولعرفت انها أس لتلك الحضارة العالية والمدنية الحديثة في اوربا التي شرحت لنا شيئاً عنها الساعة ـ فلتعلم يا فهمي بك ان وجود الاضرحة عندنا من اكبر المعاهد العلمية الدينية فهي محل التقوى والعبادة كما انها جوامع تجمع القاصى والداني لتحصيل العلوم الدينية والاخلاقية فيسطع منها نور حضارة الاسلام حيث تهدي كل من به حاجة الى المعرفة والتوبة فمثلها مثل مدارس الشعب في اوربا التي هي أس لحضارتها وقاعدة عامة لمدنيتها وكاسواق العرب عند اول ظهور الاسلام كسوق عكاظ وغيره وانك عند ما تدخل في بهو تلك الاضرحة لتلاحظ ان هناك عالماً من حملة شهادة العالمية يقوم كل يوم بالقاء العلوم الدينية والنصائح الاخلاقية تهذيباً للنفوس الضالة ذات الوجدانات السقيمة ولا تنسى ان من وراء هذا اصلاح كبير في الهيئة الاجتماعية حيث يتوب العاصي والسارق والساب والزاني على أثر سماع تلك المواعظ الدينية خصوصاً وانها تتكرر كل يوم في تلك الاضرحة باستمرار ـ فمن لم يتب الى الله اليوم فانه يتوب اليه غداً كما انه في ذلك مساعدة كبيرة لاهل الحل والعقد في البلاد حتى تجد ان القائمين بمسائل الامن العام يشعرون ان في ذلك أكبر مهيىء لاستتباب الامن والراحة في جميع الجهات ـ كذلك لا يفوتك ان في تلك الاضرحة من أهل الخير والانسانية من يقوم بواجب توزيع الحسنات والصدقات على كل من يكون قعدة بها كما انه تصرف مهايا ومرتبات الى القائمين بخدمة الضريح وبالقاء دروس دينية ومواعظ ادبية فيه فلو فرضنا كما تقول يا فهمي بك ان وجودها يحتسب عاملا كبيراً على الامة فانني من جهة أخرى أجيبك انها جمعت العدد الكبير من العاطلين وملأت بطونهم بطعام السريد وأشبعت نفوسهم بالدراهم فمن كان من الهيئة العاطلة له غاية الاختلاس والسرقة في سبيل اشباع رغباته وحاجياته فانه والحالة هذه يرجع عن غيه حيث ناشد ضالته فلجأ اليها وذلك من طريق الاحسان الموزعة على الضريح المشار اليه كما انها تساعد على ايجاد عمل لهم وفي ذلك من جهة اخرى اكبر مساعد لاستتباب الامن وحفظ الحقوق حسب ما سبق شرحناه ولاضرب لك مثلا يطابق ذلك من كتاب فيكتور هيجو في البؤساء عن

حالة جان فالجان ذلك البائس الفرنسي الذي دفعه الى الاختلاس والخطف من حانوت الخباز شدة ما عليه من جوع وعرى وما انتهت اليه حالته بعد ذلك من الفاقة والبؤس ولقد أتيت لك بمثل من كتب اهل الفرنجة واكتفيت بها لانها أضحض للحجة واكبر بياناً لتناول فهمها لان لفظة واحدة صغيرة من القرآن الشريف تدعو حتما الى تأييد ما أقول وان اثبات الدليل بما هو موجود في كتبهم لادعى الى الخضوع للحق فيما بينهم والرجوع الى الحق خير من التمادي في الباطل ـ حقاً انه لكل امر من الامور محاسن ومساوىء كما هو الحال عند اهل اوربا يا فهمي بك فعندنا كذلك مساوىء لهذه الاضرحة كما ذكرتها عزتكم في كلامكم وهذه يمكن تلافيها شيئاً فشيئاً ـ والان ما علينا من هـذا وذاك ـ اراك يا فهمي بك تزوجت من غير بنات جنسنا وهذا مما يؤثر في حياتنا الاجتماعية عندنا حيث لا نقبل على أنفسنا ان يتمتعن الاجنبيات بكبار علمائنا النابغين ـ أفلم تدل عليك تعاليمك الافرنجية ان ذلك يخالف نظامنا الطبيعي في اللغـة والدين والعادات والاحساب والانساب وحالة صناعة الامة وثروتها المختلفة ؟

احمد بك فهمي ـ لقد زدتني عرفاناً يا صاحب الفضيلة بما اوليتني به من غزير علمك وذاخر تعاليمك التي تجلت في امثالك الاجتماعية البحتة والاخلاقية العالية والادارية السياسـية ما جعلني أمجد فضيلتكم عليها واجل عبقريتكم فيها ـ اما بخصوص الزواج من الهيئة الاجنبية فلقد دفعني ذلك عملي الذي اجتهدت في مواصلتي له بتلك البلاد حيث لاحظ أحد العلماء الفرنسيين اني على نشاط واستعداد للتأليف والتصنيف فاختارني من بين اخواني الطلبة لاكون عوناً له في تصانيفه حتى انه من كثرة احتكاكي باعماله تمكنت من القيام بتآليف كثيرة باسمي كانت سبباً في ظهورها بين تصانيف علماء الفرنسيين وارتأى أن يزف الي كريمته فوافقته على طلبه

شيخ الاسلام — ولكن أنسيت بناتنا البررة وكريماتنا الفاخرة اللاتي ليس لهن طريق في الحياة سوى الزواج برجال قومها حيث لا يصرح ديننا الحنيف بتأهيل البنات المسلمات عندنا برجال الاجانب فكيف والحالة هـذه يا فهمي بك أن تخرج على قومك الى هذا الحد الم تعلم ان أولادك سيكونون من بعدك ضعاف العقيدة سقيمو الوجدان لان الام مدرسة الاطفال الاولى فتبث أثناء غيابك فيهم مسيحيتها وتحيي لغة بلادها فتتهيأ لغة بلادك الى التدهور والاضمحلال بدخول

العجماوات فيها فيتكلم ولدك تارة بالعربية وتارة اخرى بالعبرية وهكذا ما من شأنه ضعف أسلوب اللغة وعبارتها كذلك اذا ما اتخذتك أفراد امتك مثلا أعلى في هـذا المضمار لاصبحت البلاد بعد وقت ما مضيعة للغتها وقوميتها وان اضاعة اللغة تسليم للذات —

احمد بك فهمي — لو تتبعت قليلا ياصاحب الفضيلة تعاليم جوستاف ليبون في مسألة الجنسيات وتكوينها لعرفت ان الامة ذات الاحصاء الكبير من الانفس لا يؤثر فيها دخول الاجانب لقلة عددهم النسبية كما أنه لو تزوجت بأجنبية اليوم فليس لها عليّ من تأثير فعلي يدعوها الى تغيير حالة جنسية البلاد عندنا أو التأثير على قوميتنا أو لغتنا مثل ذلك مثل السكر الذي اذا ما وضعته في مياه نهر النيل الجارية بمقدار لا يستهان به فان طعم النهر لايتغير بأي حال من الاحوال كذلك الحال عندنا في التأهل ببنات أهل الفرنجة ما لا يؤثر مطلقاً في الحالة الادبية والاجتماعية للبلاد بل يدعو الى توليد النشاط في نسل أبناء مصر خصوصاً وان العنصر الافرنجي أكبر العناصر نشاطاً في الحياة العملية بحكم طبيعة جو بلاده ولتجد في جو بلادنا المعتدل الحار ما يدعونا الى الكسل والخمول وان تغيير حالة النسل عندنا بعنصر نشط جديد ما يولد فينا ذكاء على ذكائنا ونشاطاً كبيراً على نشاطنا ولقد ذكر ابن خلدون في مقدمته بأن أهل أوربا في المنطقة الباردة المعتدلة بيض البشرة حمر الخدود أصحاب قوة وبطش وذكاء مبتكر نادر المثيل كبار الاجسام يتفوق على اهل المناطق الحارة المعتدلة بحكم بيئتها وجوها — أما بخصوص تربية أنجالي والخوف عليهم من أن يكتسبوا من والدتهم صفات غريبة عن صفات البلاد وأخلاقها فانه بحسن التفاتي لهم لا يمكن ان يتسرب سوء العقيدة وضعف اللغة اليهم لاني دائماً أبداً اشارك والدتهم في تربيتهم ومن صفة الرجال قوامهم على المرأة كما أنه من صفات المرأة الضعف بطبعيتها الامر الذي يجعلني أتمكن من أن أضع لها حداً لا تتعداه ولقد اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم عند ظهور الاسلام تحليل زواج الرجال المسلمين بالكتابيات واستهل هذا الزواج مبتدئاً بنفسه حيث تزوج بالسيدة ماريا القبطية واتبعته امته في ذلك وبما ان الرجل بفطرته أشد بأساً من المرأة. فيمكنه والحالة هـذه أن يستأثر بها حتى اذا ما رزق بأولاد منها يكون له القدح المعلى في تهذيبهم وتربيتهم على أحسن الطرق المشروعة محافظاً في ذلك على كرامة دينه ودنياه وعلى هذا النمط تمكن النبي عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام

من العمل بمقتضى هذا الزواج لنشر الاسلام في جميع بلاد العالم

شيخ الاسلام — ان ما تقوله من الوجهة العلمية صائب الا أنه ليس بالامر المطرد الذي يمكن استمراره بل لا بد من وجود استثناءات فيه وكم من تعاليم علمية لا تتفق مع الحياة العملية البحتة في كثير من الامور — على ان الجنس الاحمر الوطني بأمريكا تلاشت معالمه وذلك لكثرة الزواج بالنازحين اليها من أهل الفرنجة وغيرهم وكالحال في استراليا

احمد فهمي بك — نعم ولكل أمر من الامور شواذ ياصاحب الفضيلة والشاذ لاحكم له الا عند الضرورة اللازمة (ثم يلتفت شيخ الاسلام الى الشيخ ابراهيم مستفسراً)

شيخ الاسلام — قلت ياشيخ ابراهيم ان موعد الاحتفال بكتائب الامة هو الاسبوع القادم وكنت تتناقش مع الشيخ عبد العزيز في ذلك فهل لك ان تطرح علينا مناقشتكما حتى بذلك نتمكن من المناظرة فيها بحضور صاحب العزة احمد بك فهمي الذي سيكون له الشطر الاوفر في بحثه معنا

(يحضر الخادم ببطاقة القس فيليب رئيس اساقفة طائفة الارثوذوكس)

الخادم — لقد حضر الاب فيليب

الشيخ عبد العزيز — دعه يتفضل (ثم يخرج الشيخ عبد العزيز لاستقباله وتحيته)

الاب فيليب — أسعدتم مساء ياحضرات الافاضل (ثم يبتدىء بالسلام على شيخ الاسلام ويليه احمد بك فهمي فالشيخ ابراهيم

شيخ الاسلام — أسعد الله أوقاتكم ياجناب الحبر الاعظم وكيف ما أنتم عليه من الصحة والعافية وكيف حال المجلس الملي عندكم

الاب فيليب — انني على ما يرام من الصحة والعافية ياصاحب الفضيلة كما انني اعد نفسي سعيداً في هذه الليلة العظيمة حيث أسعدتني ظروفي وأوقاتي بلقياكم واشكركم على ما تكرمتم به علي من جميل سؤالكم وعظيم انسانيتكم — أما بخصوص المجلس الملي عندنا فأصبح يسير حثيثاً حيث حصلت اليوم عندنا مسألة ذات بال في قاصر عن عته يدعى لوقا افندي حكمت عليه الاطباء به الا أنه سافر لبلد اخرى وتمكن من مزاولة عمل في تلك الجهة مع الاشتغال بمهنة خبير فأصبحنا والحالة هذه غير قادرين على حل هذا المشكل الصعب حيث ارتبكنا في مناقضتنا لانفسنا

وكذلك لمناقضة الاطباء للاطباء

شيخ الاسلام — ما أشد وقع هذا الخبر على نفسي يا فضيلة القس وما أقسى الاطباء قلباً في احكامهم على أبنائنا الاصحاء وما أعظم الخطب عندما تموت ضمائرنا فينا فتصبح تلك المحاكم الاخلاقيـة معدومة الوجود وتلك الذمة النادرة التي تجول بصدورنا والتي كانت أول باعث في الانسان على التوبة وحب الخير أثراً بعـد عين — فلا ذمة ترعى ولا ضمير يحاسب النفس على ما جنته يداها — ولا دينٌ يتقى بين الانام— أين تلك الحاسة الادبية الفاضلة وأين ذلك الشعور الحي والفـكر الصائب والارادة الفعالة في سبيل الخير والاصلاح — أين من بنى وشيد وحكم فعدل وعالج فأبرأ — أين أهل الفضـيلة والتقى والمروءة والوفا والسماحة والعلا — أتى على الـكل أمر لا مرد له حتى أصبح عزيز الجانب كبير الجاه شديد البطش بكل انسان من شيد فدمر وحكم فاستبد وعالج فأمرض فأفنى الشباب قبل الاوان وأذوى رجال هذا الزمان حتى اذا ما بنى وتجلت بغيته تنحى عن السير في سبيل قضاءمهمته — اني والله يافضيلة الحبر لفي منتهى الدهشة والاستغراب من جراء خطل الاطباء في اولي الالباب خصوصاً وان امتنا مفتقرة لابنائها للقيام بجميع أعمالها حيث أن فقدان فرد عاقل يؤدي حتما الى زوال شعب كامل كذلك احياء شخص بائد يدعو الى اسعاد المجموع في ازدياد ثروة الامة على كثرة أيدي أبنائها العاملين — ولقد يفهمون بعكس ذلك يافضـيلة الحبر قوم المريض الجهلة حيث يعتقدون أن بايقاع المرء في أحبولة المرض الـكاذب ما يدعوهم الى الاستيلاء على أمواله فينهبونه نهباً ولـكن لوكانت المجالس الحسبية والمليـة تتخذ طريقاً جديداً في المحافظة على أموال قصر الاموات (يراد بذلك القاصر المعتوه) حتى اذا ماثبتت عقليته يرفع الحجر عنه خصوصاً اذا ما ارتأى لهم قوةجهوده في الارتزاق والـكسب لان في ذلك حفظاً لامواله بين يديه عن ان تحفظ بين يدي الغير فيتلاعب فيها الطامعون — وعلى أثر ذلك أرجوك أن تحضر لنا لوقا افندي غداً ان شاء الله مع ايقاف نفوذ الطبيب فيه —

الاب فيليب — ان ما أتيتم به ياصاحب الفضيلة من حل هذا المشكل بايقاف الطبيب عند حـده لمن المسائل التي تجعلنا نثني على فضيلتـكم الخير كله اذ نرى الـكثير من عباد الله يقعون تحت طائلة الحجر فيفقدون من شدة التضييق عليهم مراكز كسبهم خصوصاً وان لوقا افندي هذا كان يكسب ٢٠ جنيهاً في الشهر

ولوجود الحجر عليه دفعه لترك عمله لعدم قدرته الحصول على كل ما يطلبه من حاجياته الضرورية حيث ان منعه عن نوال رغائبه مخافة التبذير والاسراف كان سبباً في فقدان أحسن مركز مالي كبير فكأن المجلس الحسبي يبيد الكثير من الاموال في سبيل المحافظة على الشيء التافه منها فمثله عندنا اليوم أصبح كمثل المستجير من الرمداء بالنار حالة ان العين التي يمتلكها لوقا افندي لا يزيد ريعها عن العشرة جنيهات وبطبيعة الحال ان الخسارة التي لحقت الافندي المشار اليه هي عشرون جنيهاً واصبح دخله العشرة جنيهات بدلا من الثلاثين جنيها شهرياً وهذا طبعاً من المسائل التي تقلل من ثروة البلاد اذا ما تعددت كما شرحتم لنا الآن وما الرجال الا كنوز اذا ما بحثت عنها ونقبت عليها لا لفيتها الخير العميم بفضل مجهودهم الكبير

شيخ الاسلام — حسن . والنهاية أن تحضر لي غداً لوقا افندي للنظر في امره اذ يهمني ذلك كثيراً — وما رأيك يا سيدي القس في الاحتفال بكتائب الشعب الذي سيحل ميعاده في الاسبوع القادم —

الاب فيليب — لقد بلغني عنه الشيء الكثير يا صاحب الفضيلة واستلمت من بعض الاخوان بطاقة لحضوره

شيخ الاسلام — عظيم . تكلم يا شيخ ابراهيم عن مناقشتكم السالفة التي سمعتها عند دخولي البهو

الشيخ ابراهيم — يقول الشيخ عبد العزيز ان الجيوش والكتائب نوع من أنواع الشجاعة الغشومة وصفة من الصفات الهمجية الاولى حيث انها تبتدىء بالخراب وتنتهي كذلك بالدمار الى ان قال (ويجب علينا ازاء ذلك أن نكون أشفق على الانسانية من عبث العابث بها) غير حاسب ان جميع الامم تنظر لبعضها البعض نظرة الطامع الجشع فكيف والحالة هذه نريد يا شيخ عبد العزيز ان نقلل من جيوشنا وكتائبنا حتى نكون طعمة للطامعين ولقمة سائغة لافواه الفاتحين

شيخ الاسلام — مهلا يا شيخ عبد العزيز ألم تعلم ان النبي صلى الله عليه وسلم قام بثلاث غزوات متفرقات متخذاً له جيشاً جراراً تمكن به من فتح الكثير من الامصار وتم له ولمن بعده من الخلفاء الراشدين من فتح بلاد العالم من الشرق الاقصى الى غرب اوربا وهذا راجع الى شجاعة الجيوش العربية الظافرة وما كانت عليه من حسن النظام والترتيب واستعداد العدة ضد كل مغير وطامع ولقد جبل الانسان بفطرته على الحرص والطمع أريد بذلك ان من غرائزه الثابتة حبه لنفسه

لدرجة يرتاح معه ضميره فلا يتساهل في حقه لدرجة تتلاشى معه حالته المادية والادبية ولا أن يتشدد في المطالبة بحقه والمحافظة عليه لدرجة أن يهضم حقوق غيره لانه يجب على الانسان أن يحب لغيره ما يحبه لنفسه وهـذا طبعاً ما ينطبق تمام المطابقة بين الامم التي تهتم بيسالة الجيوش والـكتائب فانهـا تعد العدة منها على سبيل المحافظة على حقوق بلادها حتى اذا ما هاجمتها أمة اخرى في سبيل نزع أملاك من يدها تكون الاخرى على استعداد للدفاع عن نفسها فتحفظ بدفاعها حقوقها الاجتماعية والمالية كما انها تشعر بان هذه الاملاك أفضل لاهل البلد نفسها عن الاجانب عنها ـ هنا يا حضرات الافاضل يجب أن نربي فينا الشعور والارادة والفكر ـ وعليه نفكر أولا ان علينا واجباً يدعونا الى حماية أنفسنا لانفسنا مخافة غزو غاز لنا كذلك يجب أن نشعر ونحس فنحافظ على حقوقنا لانه اذا ما زالت وضاعت فان في ذلك ضياع لمركزنا الادبي والاجتماعي وتصبح حالتنا فوضى بيننا فيذهب ريحنا كذلك من جهة اخرى ينبغي أن نقوي ارادتنا لايجاد الشجاعة التي نشاهدها اليوم ولا تظهر الشجاعة الا في صفوف الجيوش والـكتائب كما انها تظهر وتتجلى في جميع المهج القائمين المطالبة بالحق المغتصب وعليه اذا ما كملت مظاهر نفس الفرد للحد اللائق به فانه لا بد وأن تكمل مظاهر نفس المجموع المـكوّن للشعوب

الشيخ عبد العزيز — اننا لو قمنا بتهذيب أنفسنا على قواعد علم الاخلاق الحقيقي وتتبعنا نظريات مبادىء علم النفس فنظمنا مظاهرنا النفسية على الوجه الا كمل وكذلك لو قامت الامم الاخرى بتنظيم مظاهرها كما هو الحال عند الافراد فلا بد وان يأتي يوم تلتقي الامم فيه آخر بارودة كما أنها تطرح عن عاتقها عبء الحربية ويصبح الـكل آمن تحت لواء السلام والطمأنينة لانه ما دامت تعرف كل أمة ما عليها من الواجبات وما لهـا من الحقوق فلابد وأن يكون لذلك نتيجة المساواة بين الافراد الامر الذي ينتج عنه حتما المساواة بين الامم فتعم الاشترا كية جميع الارجاء حيث ينعم الفقير بلذيذ الحياة التي كان ينعم بهـا الغني المثري في سالف الايام

شيخ الاسلام — اما تعلم ان الله سبحانه وتعالى جعل بعضكم فوق بعض

درجات وأوجد في نفوس الافراد مواهب تختلف بعضها عن بعض لاختلاف صحة الاجسام والابدان حيث يقول العقل السليم في الجسم السليم فلا يمكن باي حال من الاحوال أن تتساوى الافراد بعضها ببعض ما داموا عرضة للاسقام والامراض ـ كما انه تختلف مجهودات الافراد فيما بينهم عند تأدية أعمالهم حيث يصبح الكسب موزعاً عليهم كل على حسب ما يمتلكه من قوة المجهود ورجاحة العقلية الامر الذي دعى العالم الى أن يكون خاضعاً لنظام الدرجات المختلفة والذي به امحت المساواة من عالم الوجود وعليه لشدة حرص الامم ومطامعهم المختلفة قام النزاع بينهم فعمدوا العدة بالجيوش والكتائب في سبيل المحافظة على الحق واداء الواجب لان المساواة في توزيع الحقوق فيما بينهم تلاشت وحل محلها المطالبة بطريق السيف والمدفع

احمد بك فهمي — ان ما تقوله يا صاحب الفضيلة امر صحيح نشاهده كل ساعة الا انه ما دام الانسان ولد حراً مختاراً بفطرته وما دام ان حالته الاولى كانت مظاهر نفسه العقل الفطري ـ والغرائز الثابتة ـ والميل الغريزي (الشعور) فانك تجد الطفل بعقله الفطري عنده معلومات فطرية كالكل اكبر من الجزء كما انك تجده بميله الغريزي يحب والدته حتى اذا ما ابتعدت عنه بكا في طلبها ـ كذلك توجد فيه غرائز ثابتة كالاشارة باصبعك امام عينيه فانه يرمشها بطبيعته مخافة وصول الضر اليها ـ وما دامت جميع الافراد عند ولادتها كانت على هذه المظاهر الفطرية المتفقة في جميع اصولها متساويين فيها كما ان جميع أجسامهم لا تختلف اعضاؤها في الخلقة والتكوين وانهم يتغذون ثم يتفلون فالمساواة امر لا بد منها ومن تأييدها بين الناس ولقد تتجلى مساواة حقوق الافراد في حالة تكوينهم الفطري الاولي حيث أجمع العلماء انه ما دامت خلقت المساواة مع الانسان من عهد ولادته ونشأته في اعضائه ومظاهره فلا بد وأن تكبر معه وتنشأ حسب استعداده العقلي والجسماني حتى اذا ما كانت نشأة الفرد في بيئة راقية فلا بد وان حكم المساواة عنده تنمو معه في درجة الرقي نفسها فتجده يتساوى بمن معه فيها وكذلك لو نشأ الانسان في بيئة صغيرة حقيرة فدائرة المساواة وحدودها تكون صغيرة على حسب صغر مركز تلك البيئة التي يعيش فيها وعليه أن حالة المساواة تنشدها في كل جهة وكل صقع بل وكل ارض الا ان المساواة في الاولى تختلف عنها في الثانية وكذلك يختلف عنها في الثالثة وهكذا تتكون درجات الشعب الثلاث حتى اذا ما تهذبت

الدرجة الدنية فانها لا بد وان تتفق مع الراقية في جميع ظروفها واحوالها فتعم المساواة فيما بينهم وبهذه النظرية يمكن أن ارجع بكم الى مسألة الجيوش والكتائب وهل يحق لكل امة أن تتخذ لها كتيبة تحميها ضد كل فاتح ام ان حب المساواة والحرية والسلام يدعو الامم لطرح السلاح أرضاً ؟ اختلف العلماء في ذلك فمنهم من نص بان الجيوش ماهي الا خسارة فادحة تنتاب الامم من وقت لآخر وآخرون من قالوا ان الجيوش شجاعتها قوة غشومة ولا ملطف لها الا الجمال والكمال والطيبة وغيرهم من قال انها هي الوسيلة الوحيدة لخلاص الانسانية من نير الانسانية يراد بذلك عند استبداد الامة القوية بالامة الضعيفة بان تأتي أخرى اقوى من الاولى لترفع نير عبوديتها عن عاتق الثانيـة ـ على ان المساواة والحرية في ذلك تتطور رويداً رويداً الى الامام حيث ان الكثير من الامم الضعيفة خرجت من نير عبودية الممالك القوية وذلك ما يدعونا الى الاستبشار بان العالم على بكرة أبيه يتهيأ لحياة جديدة راقية وهي استقلال الشعوب سواء كانت صغيرة او كبيرة على اختلاف مواهبها وكذلك الى التفاؤل بانه سيأتي يوم وتمحي معه شخصية الجيوش والكتائب من عالم الوجود ويصبح الكل كما قال الشيخ عبد العزيز ينعم تحت لواء الاشتراكية الصحيحة فيسترد الفقير ما افقدته الظروف من حقه الطبيعي من خلق الدنيا حتى الآن وهـذا طبعاً ما يتكافأ مع نظرية المساواة التي تكلمنا عنها في حينه حيث تعتبر حالتها كحال المياه المختلفة المستويات لعوائق جمة تدعوها الى هذا الاختلاف حتى اذا ما رفعت هذه العوائق وتلك الحوائل لالفيتها تتساوى في مستوى واحد خصوصاً وان من طبيعة وخاصية المياه مساواة مسطحاتها

être de même niveau

القس فيليب — لله دركم يا احمد بك لقد اتيتم بمدلول اخلاقي يدعوني الى الاعجاب بكم وكذلك الى تهنئتكم على ما اوتيتم به من غزير العلم وسعة الاطلاع واني والحالة هـذه لاوافقكم على جميع التعاليم التي شرحتموها الساعة وأضيف عليها بان سـيدنا يسوع المسيح عليه السلام كان يتخذ من الضعف شدة ومن الاخلاق العالية درعاً يتقي به غدر الخائنين فعاش السنين الطوال وهو يكدح في تعزيز مبدئه القويم متخذاً في ذلك العمل باستمرار دون أن يكل او يسأم ولقد قال في كتبه المقدسة « من ضربك على خدك الايمن قدر له خدك الايسر » اراد عليه السلام بذلك امراً واحداً وهو عدم الاعتداء على الغير ولو كان هاضما لحقوقه

مستبداً له وذلك تلافياً من ايجاد جماعات يكون قصدها المشاكلات والمشاكسات ودرأ لما عساه أن يحصل من تكوين جيوش وكتائب بل وعصابات قد تؤدي الى تفشي الفساد والفوضى فكانت ربابته عليه السلام ببلد تسمى الناصرة تدعو الى جميع حالات السلام والطمأنينة فلا يعرف للسيف معنى ولا للرمح شكلا واما جيوشنا الحاضرة فسيأتي عليها يوم وتصبح أثراً بعد عين اذ ستخرج الانسانية في ثوبها القشيب بعيدة عن ضوضاء سنابك الخيل وعن أصوات قراع الفلول وعن سماع الطلقات النارية

الشيخ ابرهيم — والله يا فضيلة الاب ان سيدنا عيسى عليه السلام كان نبياً كاملا مكملا يستحق كل اكرام وتكبير وتهليل حيث انه ما حمل سيفاً ولا درعاً الا انه اتخذ من الضعف شدة كما شرحت لنا الان على اننا نؤمن به كل الايمان كما نؤمن بنبينا عليه أفضل الصلاة وازكى التحية

الاب فيليب — نعم يا سيدي الشيخ ان يسوع كان على فضائل وحكم عالية كبيرة

شيخ الاسلام — لا شك في ذلك فاننا نمجده كل التمجيد ونبجله كل التبجيل ـ ولا تنسى يا فضيلة الحبر ان تمر عليَّ غداً مصطحباً معك لوقا افندي للبحث في موضوع قضيته ولقد ازفت الساعة التاسعة يا حضرات الافاضل وانتهى وقت اجتماعنا السار بلقياكم والسلام عليكم جميعاً (وعند ذلك يصافح الجميع)

المنظر الثاني من الفصل الاول

(ترفع الستار عن محكمة موشاة بالزهور والستائر الحريرية ذات الالوان المختلفة مزدانة كراسيها بالازهار اليانعة ومنظرها يلائم تماماً منظر حرب الزهور عند الفرنسيين وتسطع فيها الاضواء الكهربائية وحجاب المحكمة من السيدات الرشيقات يلبسن لبوس لويس الخامس عشر والسادس عشر ثم عند افتتاح الجلسة تعزف الموسيقى الوترية بنشيد الترحيب من الداخل وعلى أثر نشيد الترحيب يدخل قاضي قضاة محكمة الضمير والاعضاء والمحلفين والمحلفات والمستمعين وجميع الافراد القائمين بحضور المحكمة أما لبوس القضاة كالآتي كقضاة المحكمة المختلطة أو المحاكم

الاوربية بلبس القلنسوة فالعباءة وهذا المنظر مكون لمنصة محكمة الضمير الاخلاقية وبجانبها منصة القضاء الاهلي والشرعي)

الحاجبة الاولى — افتتحت الجلسة (عند ذلك يدخل شيخ الاسلام بلباسه الشرقي وجميع أعضاء المحكمة الشرعية ثم يجلسون في منصة القضاء المعدة لهم وعند ذلك يصمت أعضاء محكمة الضمير لحين انتهاء التحقيق الشرعي)

شيخ الاسلام — لوقا افندي سعد

الحاجبة الثانية — لوقا افندي سعد

لوقا سعد — نعم — حاضر

شيخ الاسلام — الطبيب المباشر رشدي بك

الحاجبة الرابعة — لم يحضر بعد وأرسل تذكرة بأنه سيحضر الساعة الحادية عشر

شيخ الاسلام — القس فيليب

الحاجبة الاولى — تنادي بأعلى صوتها فضيلة القس فيليب

الاب فيليب — نعم

شيخ الاسلام — (موجهاً سؤاله الى لوقا افندي) ما اسمك

لوقا سعد — اسمي لوقا سعد

شيخ الاسلام — ما صناعتك

لوقا سعد — موظف باحد المصارف المالية المصرية

شيخ الاسلام — وما صفاتك العلمية

لوقا سعد — حامل لشهادة الليسانس التجارية

شيخ الاسلام — وما مرتبك الشهري

لوقا سعد — عشرون جنيهاً في الشهر

شيخ الاسلام — وما مقدار دخلك الشهري

لوقا سعد — عشرة جنيهات مصرية من عين استغلها

شيخ الاسلام — هل هذه العين عن ميراث شرعي أم شراء

لوقا سعد — ميراث عن المرحومة والدتي

شيخ الاسلام — اليّ بالاب فيليب

الحاجبة الثانية — (بصوت عال) حضرة الاب فيليب

الاب فيليب — نعم وبالحضور

شيخ الاسلام — أرجوك يافضيلة القس ان تتكرم علينا بسرد ما اكتشفته من غوامض الامور الخاصة بحضرة لوقا افندي ولتوافني الآن باسهاب عن كل ما استطعت معرفته والالمام به حتى يتخذ القضاء مجراه العادل

الاب فيليب حصل ذات يوم ان لوقا افندي كان آيباً من الجامعة المصرية الى منزله فصادف امراً ما كان في الحسبان اذ وجد والده يستعد بحقيبته للرحيل من الديار المصرية الى ديار بلاد سوريا لاتخاذها آخر مقر له واعداً نفسه بقسم المسيح ان لا يؤوب الى هذه الديار مهما بلغ به الحال فسأله نجله لوقا افندي عن سفره هذا فأجابه بأنه حكم عليه بالافلاس امام المحاكم المختلطة فمات موتاً أدبياً في اسواق مصر واوربا حيث تلاشت سمعته الكبيرة وانعدمت ثقة التجار والافراد قاطبة فيه فألح عليه نجله المشار اليه بان يعدل عن رأيه وانه يمكنه ان يحضر لابيه ضماناً كافياً من مصرفه فينظر حكم الافلاس عليه بطريق الاستئناف ريثما يستعد لسد ما عليه من الديون الا ان والده أبى مساعدة ابنه له على هذه الكيفية وأصر على ان يترك الديار دفعة واحدة فما كان من نجله لوقا الا ان شق عليه الامر وأخذ في نفسه انفصال أبيه عنه الى بلاد نائية واشتد عليه الكدر لدرجة أن آلمه ايلاماً حتى اصبح يرغي ويزبد من جراء تصرفات أبيه المدهشة ولجهل افراد عائلته التي يعيش فيها والتي كانت ضعيفة في التفرقة بين الزعل والمرض العقلي حتى ظنت أن به مس وجنة عن تهيج عصبي لحدة في خاطره بسبب سفر والده فانتهز ذلك أحد أقاربه الاعداء باستدعاء الطبيب للامراض العقلية مع منحه رشوة لا تقل عن الخمسين جنيهاً اذا قرر بعتهه وذلك في سبيل الاستيلاء على أموال لوقا افندي بطريق الحجر عليه وفعلا حصل ذلك دون الفات نظره ودون علمه بها اذ اخذه على غرة منه ونفذ الحكم عليه بالابتعاد عن منزله بطريقة غير مباشرة حيث توسط الطبيب لدى محافظ مصرفه بنقله لجهة اخرى وعلى أثر ذلك اخذ الحجر يشتد شيئاً فشيئاً في احواله المعيشية الا ان حذاقته ومهارته في عمله وقوة ارادته المقرونة بفكر ثاقب وعقلية كاملة مكنته من كتم اسراره على جميع اصحابه وخلانه ومعارفه عن مزاولته أي عمل اضافي على عمل مصرفه للاستزادة منه بالفائدة المطلوبة فزاول مهنة أهل خبرة ولقد ساعدت الشهادة التي بيده على الاشتغال بجملة مهن شريفة وبهذه الحالة نجح لوقا افندي في توسيع دائرة رزقه

ولكنه عند مطالبته وكيله بمصر ليرسل اليه ايجار عقاره فما كان من الوكيل الا ان أخذ في عدم الرد عليه حتى مضى عليه نحو الثمانية عشر شهراً دون ان يأخذ فلساً واحداً وذلك راجع لحيل أهل الحجر بالمجالس الحسبية والملية — كذلك أخذ الطبيب المباشر من اضعاف ارادته بوضع العراقيل الشديدة امامه واتخاذ الكثير من الاطباء اخوانه لمساعدته في مهمته السيئة ظناً منه ان مرض لوقا افندي من الامراض العقلية المعتبرة من الدرجة الثالثة حالة انه من افصح أهل زمانه وابلغهم منطقاً وأشدهم حجة وأسلسهم كتابة فهو لا يمكن ان يعتبر في درجات المرض ولا من أهل النقاهة بل يجب اعتباره صحيحاً معافياً وما اتخذت الاطباء معه هذا الطريق الا للانتفاع الشخصي بأكبر مجهود على ان الادوية التي يقوم بها الاطباء في الرجل السليم ما هي الا سم زعاف فتختلق المرض وتولده كما انه يحدث في غالب الاحيان ان تسيء الاطباء للمريض المزعوم لعدم قدرتهم على تفهم حالته لنقص في خبرتهم العلمية وجهلهم المطبق وانه بالرغم من تلك الادوية التي ينشرونها عليه بطريق التلقين واثباتاً لعقليته تمكن لوقا افندي بواسع ادراكه بالمحافظة على نفسه عن ان يتمكن المرض العقلي منه لانه كمل تعليمه والرجل الكامل التعليم هو ذلك الرجل صاحب الروية بان يحاسب نفسه ويسائلها عن اسباب المسائل ومسبباتها فلا يمكن أن يتسرب اليه المرض مهما كان نوعه فتجده لا يخضع للاوهام والخرافات لانه لا يعمل عملا ما لم يكن مقروناً بفكر وواثقاً من وجوده ذلك الوجود الحسي كما هو الحال في قوانين البلاد وابحاثها التي ما بنيت الا على دعائم ثابتة من حقائق وعادات ملموسة راقية — ولقد كثرت حيل الاطباء في هذه الاونة لدرجة اتخذتها العائلات محلا للكسب والفائده بايقاع أحد أبنائها تحت طائلة المرض الكاذب ومن الهين على الطبيب ان يعطي تقريراً كاذباً يخدع به أهل القضاء والمجالس الحسبية والملية مقابل مبلغ من المال وهكذا بل وعلى هذا النمط تفقد الامة مهجاً وعقولا راجحة كانت أولى بهم في اسزادة ثروتها عن ان تضعهم في زوايا النسيان والاهمال عالة على الاهل والبلد — بل أضف الى ذلك سريان الحجر على المظلوم من المعاتبة الامر الخطير الذي يحتاج الى شرح واف فيه كما يحتاج الى دقة النظر ملياً — فالحجر السري دون اخطار المعتوه ذات العته الكاذب حسب تقرير الطبيب الكاذب يدعو صاحبه الى التلاشي في جميع أعماله لان مظاهر نفسانيته تشعر بشدة الضغط والمنع من آن لآخر وان اجابة المطالب في هذه الحالة لما يؤدي

الى ارضاء ضمير الفرد حيث يشعر الانسان بفرح لها عند نوالها فمثله مثل العصفور الذي ينتعش لحريته ويزهو حتى اذ ما تمكن الانسان من صيده ووضعه في قفص صغير له اشتد عليه الضيق فتخور قواه وتضمحل عزيمته وينكمش فؤاده الى ان يموت مذلولا هكذا يا حضرات الافاضل ينطبق هـذا المثل على أولادنا وأفلاذ أكبادنا الذين يسوقهم القدر المحتوم الى الخضوع تحت طائل الحجر ورحمة الاطباء فيذوى شبابهم ويذهب ريحهم على أن اعمال الحجر في المعتوه لأمر يؤدي حتما الى عرقلة مسعى الطبيب في علاجه لانه ما معنى ان تقيد فرداً لفحصه طبياً وفي آن واحد تحكم عليه بالمرض حالة انه لو تركت له العنان لتمكنت يا طبيب ان تعرف حالات الضعف فيه فان كانت عن مس أو جنة كان هو المطلوب في السعي لاشفائه وبلله وان لم يكن كذلك فلتتركه وشأنه يسير في الحياة كما يشاء ويشاء له الهوى . ومن مصائب هـذا العالم ان لا يمكن لاهل الطب التفرقة بين الصغير والكبير والكهل والشيخ بل يعامل الكل كأنهم رجل واحد وفرد واحد كأنما مداركهم واحدة وصفاتهم متفقة وأحوالهم متقاربة فيتمذب الظريف حيث يعامله الطبيب كمعاملة القوي الجسم الكبير العضلات أو يعامل المتعلم معاملة الحمار وأهل السوقة وفي ذلك طبعاً لاشد العذاب على المتعلم المسكين أضف الى ذلك عمل المسابقة بين أهل المراهقة من الشبان وأهل العقد الرابع من العمر فانك تعلم ياصاحب الفضيلة ما عليه أهل المراهقة من شدة الحافظة الفكرية المدهشة بخلاف اهل العقد الرابع من العمر فانهم لا يمتلكون من عقليتهم سوى الفهم الذي يحملهم على اتقان الادارة وتنظيمها في أي عمل من الاعمال فحرام على أهل الطب أن يضعوا المساواة بين شباب اليوم وبين رجال هذا الزمن ولقد شاهدت الكثير من الاطباء من يعتمدون على مثل هذه المسابقة مدعين في تقاريرهم ان صبياً سبق رجلا في نسخ ورقة غير عالمين ان شدة نشاط الصبي وقوة حافظته تدعوه الى اتقان النسخ والنقل من كلام العلماء فيصح أن يكون مرؤساً عن أن يكون رئيساً ومن جهة اخرى في حالة الرجل العملية فانه يصح أن يكون رئيساً عن ان يكون مرؤساً لما عليه من سعة الادراك وقوة العقلية والثبات فحرام على اهل الطب أن يتخذوا معاملة رجل كبير كمعاملتهم لصبي مراهق بل يجب أن يختبر الكبير مع من هم على شاكلته في السن وهكذا حتى لا تجحف حقوق الكبار من الرجال في سبيل ارضاء المراهقين وكثيراً ما عيرت الاطباء لوقا افندي بان فلاناً وفلاناً من صبية اليوم ظهروا عليه في

مسابقة كذا وكذا وطبعاً هـذا طريق لا يكون محلا للاحترام بأي حال من الاحوال ـ كذلك يا صاحب الفضيلة هناك أمر آخر وهو عدم تفرقة الاطباء في الطلبة الذين اساء لهم الزمن بضعف في عقليتهم لمدة لا تتجاوز حد زعلة واحدة ذلـكم الطالبة لا يمكن بان نسوى بين الناقهين منهم وكانوا بالمدارس الثانوية عن كانوا بالمدارس العالية لان ما حصله تلميذ الثانوي قليل جداً عما حصله الطالب العالي وكيف كان ذلك ؟ نقول ان الطالب العالي لا يتمكن منه المرض تمكنه من تلميذ الثانوي حيث ان ما بمحافظته وذاكرته يدفع بالمرض الى التلاشي خصوصاً وان من مزايا العلم ما يؤدي بصاحبه الى كتمان ما يجول بخاطره من خرافات نشأت عن ضعف عقليته ولذلك يتعب الطبيب في ادراكها والتوصل اليها مهما فحصه اما طالب الثانوي فيمكن للطبيب ادراك مرضه بمجرد محادثته حيث يتجلى له خلطه في الكلام وعلى ذلك لا يجوز أن نعامل مرضى طلبة المدارس العالية بطلبة المدارس الثانوية لان في ذلك اجحاف بحقوق أهل التعليم العالي خصوصاً وانهم على ابواب الحياة العملية بعد تتميم دور النقاهة عندهم ولذلك يجب أن لا تضع الاطباء أي حجر عثرة في سبيل تقدمهم الى الامام حتى بذلك تتمكن الامة من كسب فوائد رجالها العاملين ـ والان أطلب باسم العدالة والحق الذي يعلو ولا يعلى عليه أن يرجع لوقا افندي الى مسقط رأسه كما اننا نلتمس من يد القضاء العادل رد مظلمته مع اتخاذ الاجراءات القانونية ضد كل ما من شأنه فساد حال الافراد

شيخ الاسلام — سمعتم يا حضرات القضاة والاعضاء ما سرده لنـا الساعة فضيلة القس فيليب وما أتى عليه من دقيق المسائل التي تحتاج الى نظر وروية

(هنا يدخل الطبيب رشدي بك)

الحاجبة الثالثة — حضر الساعة الطبيب المباشر رشدي بك

رشدي بك — حضرت الساعة ياصاحب الفضيلة وأعتذر لفضيلتكم على تأخري عن الميعاد المحدد لافتتاح الجلسة وذلك لمشاغل ذات بال دفعتني لهذا التأخير

شيخ الاسلام — عذرك مقبول يا حضرة الطبيب النطاسي الا أن وعد الحر دين عليه وضبطك لميعادك ضبط لاعمالك

رشدي بك — هل هناك ما يحتاج للسؤال

شيخ الاسلام — بل أشياء تحتاج لسؤالك

رشدي بك — نعم فلتتفصل بالسؤال ان شئت

شيخ الاسلام — أتتنا البارحة شكوى من أقارب وعائلة لوقا أفندي سعد تفيد بأنك كتبت تقارير كاذبة في حق لوقا أفندي وانك جعلت المجلس الملي والحسبي يقوما باتخاذ الاجراءات بايقاف تصرفاته فكان ذلك سبباً في خسارته وظيفته التي كان يزاولها خصوصاً وانه كان يتقاضى مرتباً وقدره ٢٠ جنيهاً مصرياً فهل يحق لك يا حضرة الطبيب ان تدفع المجلس الى ان يبدد أموال الافراد فيخالف بذلك مبدأ عمله الذي تخصص له وهو محافظته على أموال القصر والافراد قاطبة

رشدي بك — لا لم يحصل يا صاحب الفضيلة بل المعتوه الذي تتكلم عنه الآن شفي وأبل من مرضه حيث كانت حالته من مدة أربع سنوات سيئة لعدم قدرته على التكلم لعته في عقليته على انه أصبح اليوم شافياً معافياً

شيخ الاسلام — يا لله منكم يا أطباء اليوم تحكمون على الافراد بالعته ثم اذا ما أثبتنا كذب تقاريركم تفيدون بأنهم شفوا من مرضهم والله لو ذلك العجب العجاب بل هي عدة نصب اتخذتموها على سبيل الانتفاع واني لقادر على أن أثبت لكم ما أقوله بان لوقا أفندي لم يكن مريضاً يوماً ما

رشدي بك — انني أحتج بشدة على اهانتكم اياي يا صاحب الفضيلة لهذا الحد وليس لكم أن تتخذوا التقريع وسيلة في مساعدتكم خصمي عليّ لانه بذلك تعتبر متحاملا في تحقيقكم فتنتزعكم العدالة من كرسي الرئاسة وانه لا بد وان أرفع أمري الى صاحب المعالي وزير الحقانية وكذلك الى حضرة صاحب العزة مدير مصلحة الصحة حيث اني أهنت أثناء عمل التحقيق

شيخ الاسلام — ان يد القضاء العادل لاتبالي في كل من اشتبه فيهم من جريمة أو في كل من ثبت عليهم تهمة جنائية بمد أيديهم لنوال رشوة في سبيل القضاء على الافراد لصالح آخرين مقابل التسفل بأخذ مبلغ من المال فتمس كرامة وظيفته الشريفة بل وتتدهور حالته العالية الى الحضيض

(في هذه الآونة يحمر الطبيب خجلا من شدة التقريع وعند ذلك يدب في نفسه نبض الضمير)

رشدي بك — وهل لكم في اثبات ذلك بالبينة يا صاحب الفضيلة

شيخ الاسلام — لقد ظهرت البينة اليوم حيث ثبت عليك اداتك كل الاثبات

رشدي بك — فلتأتني بمن يثبتون عليّ بادانتي

شيخ الاسلام — ها هو فضيلة الاب فيليب الذي عثر على سند كتابي من أخذ أقارب لوقا أفندي يثبت فيه أخذك الرشوة ومقدارها ٥٠ جنيهاً مصرياً وكذلك ها هو السند بخط يدك فلتقرأه . والآن أتركك لضميرك ولذمتك ان كنت تحمل بين جنبيك ضميراً حياً

(عند ذلك يضيء الفانوس السحري وتسطع ألفاظ محكمة الضمير باضواء كهربائية فوق رأس قاضي القضاة بأحرف ذات ألوان مختلفة وتطفأ الانوار الاخرى فيهتز لهـا الطبيب وجلا لانه في هذه الآونة يأخذ به وخز الضمير كل مأخذ اذ تحاسبه نفسه على فعلته السيئة التي اقترفها في أخذه الرشوة المشار اليها وتتجلى في آن واحد حركات الضمير التي تجول بخاطره على منصة القضاء المذكورة حيث يبتدىء قاضي قضاة محكمة الضمير في سؤاله كما هو الحال بالضبط عند محاسبة الانسان نفسه بنفسه . ولقد اتخذنا تجسيم محكمة الضمير على المسرح بشكل محسوس حتى يتمكن الناظر اليها من تفهم حالاتهـا المختلفة ليتحلى بمحاسنها وليتخلى عن رذائلها . ثم يختفي الضوء مرة أخرى لمدة ثلاث ثوان ويعود بالثاني للاستضاءة فيصفر وجه رشدي بك مرة ثم يحمر أخرى ويخضر آونة لشـدة ما يؤلمه من حراجة المركز وثانياً للمحكمة المهيبة المشكلة امامه وثالثاً لما يجول بين جنبيه من تقريع الضمير له — فيخاطب المحكمة الخاصة بمحكمة الضمير كالآتي

رشدي بك — واهاً لما عساه أن ينتابني مما جنته يداي — لقد بدأ يدب في نفسي ذلك الضمير الحي ولقد نصبت أمامي تلك المحكمة الادبية الهـائلة على أثر ما جال بصدري من نور الله عز وجل فانعكست تلك الاشعة الملكوتية الطاهرة على منصة القضاء بحروف من نور مكونة من محكمة الضمير ثم اسمع همساً تحت هذه الاحرف المستضيئة حيث يهمس قاضي القضاة ثلاثاً « محكمة الضمير » « محكمة الضمير » « محكمة الضمير »

قاضي القضاة — بصوت خشن « محكمة الضمير . محكمة الضمير . محكمة الضمير »

(ثم تدق الساعة اثنى عشر دقة ويكون صوت الدقة على نغمة ورنّ النهوفت خشناً والجلوس بل والكل سكون كأنما على رؤسهم الطير وبعد ذلك بخمس دقائق يتكلم رشدي بك)

رشدي بك — (لنفسه وللمحكمة الضمير بصوت الحماس المرعب) ها أسمع صوت الضمير الهائل يناديني من بين جنبي حتى استفحل نداؤه عليّ — فانبعث

من مكنونات صدري حرارة زفير شديدة الى أن تمثل أمامي على منصة القضاء وظهرت له رجالا يخاطبونني ويحاسبونني عماجنت يداي فكأني بيوم الحشر احاسب وأمام الله أطالب — فرفقاً بي أيتها النفس المطمئنة وشفقة بحالي أيتها الحاسة الادبية العالية تلك الحاسة التي أنازع فيها النفس تنازع البقاء وذلك الضمير الحي الذي لا ينطفىء نوره الا عند النفس الاخير من الحياة حتى اللقاء

قاضي القضاة — (بصوت خشن) الاعتراف — الاعتراف — الاعتراف

رشدي بك — صبراً يا اهل القضاء الادبي الراقي ومهلا علي حتى أخفف من لوعتي حيث بلغت الروح التراق

قاضي القضاة — (بصوت خشن) الاعتراف فالتوبة — الاعتراف فالتوبة الاعتراف فالتوبة

رشدي بك — واهاً لما عساه أن يمسني من هول المصاب — ورفقا بي على ما انا عليه من سوء المآب ـ امددت يدي لاشفي غلتي شغفا بحب المال وكتمت سري عن الصاحب والقريب حتى الخال ـ ولم أحسب حساباً لشر المآل ـ الى ان ظهر بين الناس أمري وتجلى بين الانام سوء فعلتي وغدري ـ شهرتي ـ سمعتي ـ صيتي العظيم الشأن ـ بل كفاءتي التي بلغت عنان السماء ـ اصبحت قاب قوسين او ادنى حيث تسير الى مهاوي الابدية نحو السقوط والخذلان

قاضي القضاة — ايتها المظاهر النفسانية والقوى العلوية الربانية ثم الاعتراف فهل هناك من توبة وغفران

رشدي بك — أما مظاهر نفسانيتي فقد اختل توازنها لدرجة فقدان انسانيتي وقويت الشعور حتى الى المال شغفت وارتشيت وضعف الفكر عندي لدرجة السماح لي في السير الى غياهب الضلالة والجهالة أما الارادة فأصبحت سلبية حتى تمشت مع الشغف والشعور الى ان صرعت محموماً من شدة المقدور ـ فألتمس منكم التوبة والغفران وأرجو من لدنكم الرحمة والسلوان حيث فقت لنفسي ورثيت لحالي ورجعت عن غيي (والرجوع الى الحق خير من التمادي في الباطل)

قاضي القضاة — (بصوت خشن) الحكم ـ الحكم ـ الحكم

(ثم تدق الساعة ثلاث)

رشدي بك — (يتحمس مع تألم) رباه صبراً على الشدائد فما أشد من وخز الضمير اذا ما اشتد وما أتعس من ذلك المسكين من بني الانسان اذا ما أصبح يرزح

تحت أحكامه القاسية تلك الاحكام المستمدة من نار الجحيم كأن ما بها حجارة من سجيل فتهتز لهولها فرائص الانسان وترتعد لمصابها اعضاء كل من يقع تحت طائلة أحكامه في هذا الزمان

قاضي القضاة — (بصوت خشن) العقاب ـ العقاب ـ العقاب

رشدي بك — ويلاه من شر المصاب وعظيم البلية ـ لقد نفذ السهم وساءت عليّ كبير المسئولية ـ فهل من مغيث يرفع عني ما أصابني من يد القضاء العلوية ـ وهل من ملطف على العباد من شديد احكام هذه القضية ـ اللهم سبحانك أني أستغفرك وأتوب اليك من سوء ما جنته عليّ نفسي في عدم تقديري لواجب الانسانية ـ (ثم يخر مغشياً عليه)

(عند ذلك تنتهي محكمة الضمير ثم تبتدىء الجلسة الشرعية لنطق الحكم فينادي شيخ الاسلام لوقا افندى ليأخذ أقواله)

شيخ الاسلام — يا لوقا افندي بلغنا من حضرة الاب فيليب عنك مسائل اساءتنا وما كنا نود بك سوءاً

لوقا افندي — والله يا صاحب الفضيلة لقد داهمتني صروف الليالي وتقلبات الحدثان وانا عنها باعزل ـ حيث جردني الطب والحجر معاً من كل حق انا كنت به أولى وافضل ـ داهمتني سويعات الاسى قهراً فيما أمتلك حتى حرمت العيش مما هو أعز واكمل ـ فقدت وظيفتي فساءت نكبتي فرحت عديم الحظ والعز المضيع. ضحية دجال عليّ مموه باني بين الورى أشد عتهاً واخبل ـ حكم الجلسان عليّ حكماً قاسياً فاشتد بي الحجر وصرت اناجي الليل من شدة كربتي وقوارص لوعتي حتى نفد الصبر ـ فوافني الاب القس الفاضل بكل خير طلبته ـ ومن نكبتي شد أزري فقمت لساعتي اطالب بالحق الذي كاد عني يدبر ـ ففرحت لنفسي على أن القيود التي قيدتني بها اولو الامر أوشكت على التفكك

شيخ الاسلام — وما الذي شعرت به ايضاً اثناء الحجر عليك يا لوقا افندي

لوقا افندي — غلط الطبيب عليّ غلطة مورد عجزت موارده عن الاصدار
والناس يلحون الطبيب وانما غلط الطبيب اصابة الاقدار

فكان يتبعني كلما اسير باي جهة رجل جعلته على ما اظن بعض اقاربي لمراقبتي مخافة اني اضل الطريق ظنا منهم ان ما بي من عته قد يدعوني الى عدم معرفة طرق البلد وشوارعها ـ حالة يا صاحب الفضيلة انني تناءيت كثيراً في بلاد

فلسطين وسوريا و كذلك في بلاد السودان فلم اضل طريقاً يوماً ما ولم أغب عن ادراكي أي لحظة ولمثل ذلك تجدني أتألم كل الالم خصوصاً وان الافراد القائمين باتباعي ماهم الا على قصر في الادراك صغار العقول فتجدهم لا يمكنهم لصغر عقليتهم تفهم ما يجول بخاطرى فيخبطون خبط عشواء حتى اذا ما غيرت طريقي لتغييري خطة السير التي كنت اسير فيها يتهموني بأنني ضللت الطريق ولذلك تجدني دائماً حسب أمر الطبيب وتحت رحمة هؤلاء الافراد الجهلة فتسوء بذلك حالي وتضيع عليّ فوائد لو تركت لي وطريقتي لجنيت الخير العميم ـ ولا تنس يا صاحب الفضيلة ان مثل هؤلاء الانذال كثيراً ما يسيئون اليّ حيث انهم ينشرون عني في كل جهة عدم اهليتي فتكف الافراد على اختلاف طبقاتهم عن المعاملة معي فأصبح عن تناول الرزق محروم وعن مزاولة اي عمل من الاعمال قصير اليد عنه مظلوم

شيخ الاسلام — انني ارثي لحالك يا لوقا افندي خصوصاً وقد ظهر الساعة خبر ارتشاء الطبيب المباشر وهذا اثبات كاف لعقليتك من قديم وعليه اطلب المحلف احمد بك فهمي لالقاء كلمة في ذلك

احمد بك فهمي — ان نقطة الغضب التي جعلت الكثير من الافراد يعتقدون بان لوقا افندي به عته لم تكن بالبينة الواضحة التي يحسن السكوت عليها لانه يراد بالعته في مثل هذه الظروف هو الخلط في الكلام الذي يدعو حتما الى عدم الاهلية وذلك لكون المعتوه لا يقدر على تفهم احوال الغير واعمالهم كذلك لعدم قدرته على اثبات حقه بقوة الحجة وفصاحة اللسان والمنطق الامر الذي يؤدي بالضرورة الى ارتباك جميع المعاملات التي يتعامل بها المعتوه مع آخرين ـ ولقد يعبرون علماء الاخلاق وعلماء الاجتماع قاطبة عن الغضب في مثل هذه الاحوال غضب شريف نتج عن ميل شريف وهو حب لوقا افندي لوالده ذلك الحب الذي دفعه لمساعدته لدى مصرفه ليضمنه عند اهل روكية التفليسة فيستأنف الحكم لمدة يتمكن والده في خلالها من تسوية ديونه بطريقة تشرفه خصوصاً وان من الواجب علينا ان لا نقتل فينا الحب الطاهر والاميال الشريفة العالية لأن من الصواب ان يشعر لوقا افندي بفراق والده عنه ذلك الفراق الابدي الذي ينم عن غريزته فيه من الشعور والاميال التي خلقت معه منذ نشأته حيث فطر الطفل على حبه لوالديه وجدير وخليق بلوقا افندي أن يحب والده لدرجة المحموم ـ كذلك نريد ان ندرس قليلا عن أخلاق لوقا افندي وعما وصلت اليه ايديه العاملة في الحياة الاجتماعية الحاضرة

فنتساءل من هو لوقا افندي ـ الجواب على ذلك هو شاب في الخامسة والعشرين من العمر حوت نفسه على مظاهر ترجح فيها شعوره وعقليته على ارادته ثم ولنتساءل كيف كان ذلك ـ نقول ان من اطلاعنا على حوادثه اليومية التي اثبتها الاب فيليب نجد ان شعوره ازداد لحد الشغف والميل لوالده ذلك الميل الغريزي مصحوباً بفكر وقاد وهوسعيه المتواصل لضمان والده عند المصرف الذي يزاول عمله فيه حتى يرفع عنه حكم الافلاس باتخاذ طريق آخر باستئناف القضية - ولكن هل يمكن للوقا افندي ان يتخذ كل هذه التصرفات والاجراآت اذا حكم عليه بعته وسرى عليه الحجر تثبت احكام الضمير والمشاعر والوجدانات التي تصحبها ان الانسان حر في اعماله فما هذا الصوت الرنان الذي يحتم علينا تنفيذ تلك الاعمال ونحن نعرف ان العاجز عن العمل لا يكلف بتأديته بل يقع التكليف على من له قدرة عليه أو يستدعي التكليف القدرة والحرية هذا من جهة ومن جهة اخرى اذا خالفنا هذا الصوت الآخر الناهي فانه يعنفنا ويوبخنا على هذا العصيان فكيف نفسر هذا الخجل وذلك الخزي الذي نشعر به عند مخالفتنا هذا الصوت اذا لم تكن تبعة اغلاطنا وهفواتنا ملقاة على عاتقنا واننا مسئولون عن افعالنا لاننا انما عملناها باختيارنا وانه لا يعقل ان يوبخ او يعنف على أمر لا يصدر منا - لم ينجح الانسان في أي وقت من الاوقات في التخلص من توبيخ الضمير أليس ذلك كافياً لاثبات الاختيار والارادة في الاعمال كذلك يضرب القانون على أيدي المجرمين باعدامهم أو بسجنهم لا للتخلص منهم ولا لجعلهم عبرة للغير كما يظن بعض الناس بل لان الشارع يعتقد أن ما ارتكبوه من الجنايات كان بمحض اختيارهم وانه كان في امكانهم تجنب هذا الشرع أما اذا كان الانسان مسيراً في اعماله أعني مضطراً لا دخل له فيها فترفع هنا عنه المسئولية حيث ان الحادث الذي جناه أتاه مضطراً مسيراً — فمسألة كونه مسيرا — أمر يدعو الى رفع المسئولية فتأخذ حرية لوقا افندي في الاضمحلال والتلاشي وعليه لا يمكنه بأي حال من الاحوال القيام بمساعدة والده كما انه لا يمكنه ان يقوم بأي تصرف ما - ولقد ثبت لنا من ترك لوقا افندي لخدمته أنه أول من عرف الواجب نحو نفسه فأراد باستقالته حفظ حقوقه النفسانية من حيث الحرية في العمل والتصرف في جميع اموره لان الانسان خلق حراً مختاراً والحرية كنز لا يفنى وان من شروط الحجر ايقاف صاحبه عن تأدية أي عمل من الاعمال فيشعر في ذلك أنه مذلول الجانب والمذلة تدعوه طبعاً الى

البقية تأتي . ويليه الجزء الثاني

ملاحظة هامة من المؤلف : ـ

محذور على اصحاب فرق التمثيل العربي والافرنجي تمثيل هـذه الرواية ما لم يكن هناك اتفاق مالي بينهم وبين مؤلفها — وكل من يقوم بتمثيلها دون الحصول على اذن بموجب عقد محرر من صاحبها المؤلف لهـا يكون عرضة لمحاكمته قانوناً بمقتضى المواد الخاصة بذلك

المؤلف
احمد محمد عنايت
خريج التجارة العليا
شارع البستان نمرة ١٥ بعابدين ـ القاهرة

الخطأ	الصواب	صحيفة	سطر
الموسيق	الموسيقى	٨	٢٠
في أول مرة	لاول مرة	١٥	١١
فالمسئولية تقترن	فتقترن المسئولية	١٨	٧
مملوء	مملوءاً	٢١	٢٥
في ما	فيما	٣٠	٩
الحـكمة تستدعى	وان الحـكمة تستدعى	٣٠	١١
بيقون	بيقُون	٣١	٢٤
فان في ذلك تكميل لنفسه واحترام لشخصه	فان في ذلك تكميلا لنفسه واحتراماً لشخصه	٣٤	٢١
Les mentent	Les meritent	٣٥	٢٢
يتفنون	يتفننون	٣٩	٢٦
الاربعة فرق	الاربع فرق	٤٥	١٢
كا نما	كا نما	٤٧	٣
ولـكن	وليـكن	٤٧	١٤
سمح	سبح	٤٨	١٠
السمريد	الثريد	٥٩	٢٣
اضحض	أدحض	٦٠	٤
الرمداء	الرمضاء	٦٤	٥

